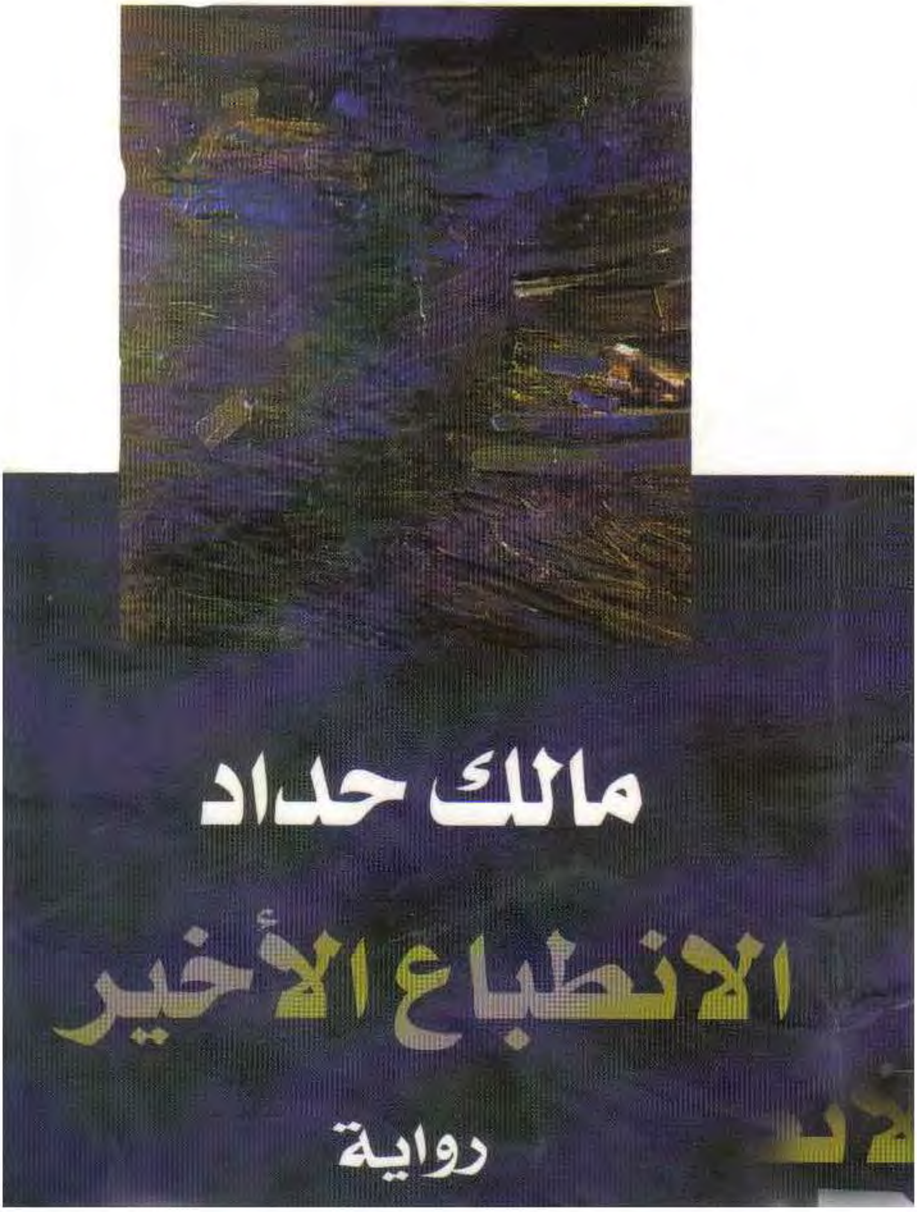


مالك حداد

الانطباع الأخير

رواية

منشورات الاختلاف

نشر هذا الكتاب بدعم من المحافظة العامة لسنة

الجزائر في فرنسا

Djazair

الجزائر

الانطباع الأخير

رواية

ترجمة عن الفرنسية: السعيد بوطاجين

منشورات الاختلاف

22 شارع الاخوة مسلم الجزائر

هاتف وفاكس: 021712791

إخراج: آسيا موساي

تصميم الغلاف: بشير مفتي

* صدرت هذه الرواية باللغة الفرنسية عن منشورات بوشان سنة 1989

مالك حداد

الانطباع الأخير

رواية

ترجمة السعيد بوطاجين

منشورات الاختلاف

- يجب تخريبه.

ثم أضاف المدعو علي، وعيناه شبه مغمضتين:

- يجب تخريبه، يجب.

لم تكن هناك سوى ريح تسمع. ريح بلا بعد ، ريح ثرثارة وغنائية، ريح ذات جانبية مسرحية.

أغلق المدعو علي قلمه من جديد بحركات ثقيلة قليلا لأستاذ بعد الدرس، وأعاده إلى الجيب الداخلي لكنديته بدقة متناهية، وبرقة رفع مسدسه وأحكمه بإطباق في حزام سرواله. كان المسدس يبدو مفارقا لقامة هذا الرجل. وكان علي يتنفس بشكل مفتق كأولئك الذين لا يتكلمون طويلا ولكنهم يفهمون أكثر. كان سعيد ما يزال جالسا على كرسيه الخشبي القديم وكتفاه العريضتان المحنيتان تجعلان ظل رأسه يرقص على جرائد مبقعة تتدلى على صناديق عتيقة كانت تحتوي على صابون في ما مضى. لم يحدث أن فكر سعيد مليا، كان تفكيره يسمع...

يحدث أحيانا أن يتسلى الأطفال بمعاودة الكلمات الأكثر شيوعا إلى أن تفقد كل معناها، إلى أن تبدو غريبة ومجهولة. البيت، البيت، البيت. البيت. بعد البيت العاشر لا يوجد بيت. يجب تخريب الجسر. تخريبه، يجب. يجب.

بالتأكيد، نعم، يجب، يجب.

من الوهلة الأولى لن يكون هناك جسر.

خرج سعيد وعلي. سكتت الريح. لقد غارا في السيارة التي تنتظرهما دون أن يتكلما. لم يطرح السائق أيّ سؤال، وما كانا بانتظار أيّ سؤال. هناك، باتجاه الشمال ، على بعد كيلوميرات، يمكن رؤية المدينة وسبر تنفسها. المدن لا تتنفس إلا ليلا. لقد أزاحت الريح الغيوم. والقمر، قمر غريب يشبه قمر البطاقات البريدية، وكان يضيء الطريق أكثر من مصابيح السيارة. وكانت أشجار الزيتون تومئ في الحقول كأطفال سعداء يلتهمون منحدرا.

- هذا أمر غير طبيعي؟

- ماذا إذن؟ تساءل علي.

انقضى صمت طويل، من النوع الذي يجعلنا نسمع تفكير الآخرين. وحينها نهاب تعكيره، كما نهاب رمي حجر في المياه التي تسمّى نائمة. كل واحد يعرف أن المياه لا تنام. كل واحد يعرف أن الريح ليست بكماء. في بعض فترات حياتهم يتحدث الناس ليقولوا شيئا، وعندما يسكتون يتكلمون أيضا. الثرثرة هي مزيّة العاطلين والسعداء. استدار علي نحو مرافقه. مرافق يجهل اسمه. ولكنه مرافق لأنهما كانا معا، لأنهما متّحدان وموصلان بغاية واحدة، بخلفية من الكوابيس والأمل. كان المظهر الجانبي لعلي على جانب من الشباب المنقطع النظير. لقد كانت عيناه مركزّتين على تفكيره، وكما نقوم بعناية برسم تكفي صرامته الهندسية، قال:

- الحرب مسألة غير عادية.

أشجار الزيتون تنكبّ صوب المدينة دائما. والأرض الحمراء تلمع تحت عيون المصابيح الضفدعية.

- كل هذا من أجل السلام.

لم يجب علي. مسح بخار زجاج نافذته. لابدّ أن هذا الرجل كان يحمل نظارات، حركاته في منتهى الدقة دائما، ما هي سنّه يا ترى؟ في بعض اللحظات المأساوية، وعندما نكون مع غرباء، نطرح الأسئلة الأكثر ابتذالا.. هل يفضل البفتيك طازجا كما ينبغي أم طازجا قليلا؟ هل يذهب إلى السينما أحيانا؟... وبحركة تنم عن انفعال أكثر منها عن تهيّج مرضي صافح سعيد مرافقه:

– الجسور، الجسور، الجسور لا تصنع بالمبادئ، وإنما بالدّهن والمحارق. الكلمات لا تستقيم. ما يترك الجسر واقفا هو الفولاذ واللترات. ليترات من العرق والدم...

سكت المدعو علي.

قبل بلوغ الروابض الأولى أوقفتهم إشارات ضوئية في وسط الطريق. المصابيح تضئ السّنان المنتصبة بانتظام في أشرطة ضيقة لا تسمح بمرور سوى سيارة واحدة. فوهات الرشاشات تدقدق على زجاج الـ203. رائحة الحرب.

أخرج الرجال الثلاثة بطاقات الهوية. كل شيء على ما يرام. انطلقت الـ 203 لأن بطاقات الهوية كانت على ما يرام. لأن الدرّاءة تحمل صليبا أحمر. لأن السيارة مسجلة طبيعيا جدا، باسم طبيب عائد من جولة يقوده ممرض، رفقة زميل له.

وصلوا إلى المدينة في الثامنة ليلا تقريبا. العاشرة هو موعد حظر التجوّل. لا يمكن أن ترى في المدينة إلا الأوروبيين والعسكريين. إنهم الوحيدون المؤمّنون من عقاب حملة غير متوقعة في البرنامج.

كانت المدينة رازحة تحت الصمت. في الحقيقة، لم يكن هناك صمت. سيارات الجيب والدبّابات لا تسطع ببكمها، الحارات العربية تفكر وهي معلقة في الأعلى أو منطوية في المنخفضات.

آنهج الفرنسيين تسطع بكل أضوائها، في الحانات لا يزالون يلعبون الـ 421. فتيات كوكا كولا الفاتنات كن دوما سخيات بصدورهن وبعيونهن نصف الملائكية ونصف المومسة. كل سعادة الغفل .

دائما، ودون أن يؤمر، توقف السائق قرب بناية حديثة احتلت نصف طابقها السفلي مفوضّية شرطة، وأخيرا قال عليّ الذي لم يتحدث بعد:

– على كل حال، يجب أن يخرّب.

وفي الوقت الذي كانت فيه السيارة ذاهبة آضاف بصوت حزين صارم:

– بعد ذلك ستبنون جسورا أخرى...

وعندما كان يعبر سقيفة البناية حيّاه شرطي عربي، إنه يعرف المهندس جيّدا .

– كيف حالك؟ سأله هذا الأخير.

– كما ترى.

كان الشرطي يحمل، إضافة إلى خوذته ورشاشه، مسدسا وقنبلتين يدويتين معلقتين في حزامه، لقد كان تلميذ أبي سعيد في مدرسة بالمدينة.

– سحنتك ليست جيّدة ، قال سعيد باهتمام بالغ طالبا مصعده.

أضواء المدينة بها آلام في عيونها. ومن شرفته الصغيرة كان سعيد يسيطر على الحي وضواحيه. قوافل عسكرية تتجه نحو الجنوب. رتل طويل وبطيء. أصفر وأسود. وبعدها اختفت القوافل وقد التقفها الأفق المتموج كهاته المتروهات الفضائية التي سرعان ما تذوب في الأرض.

في ما مضى كان السباخون هم الذين يسلكون هذا السبيل ويجيئون متأخرين لتزويد السوق. في ما مضى ... كان يستلزم أقل من سنة لينتصب حد بين الحاضر وهذا "الفي" ما مضى الذي لا يعرف الأسلاك الشائكة في الطرقات، حظر التجول والدبابات.

بين عشية وضحاها، بين عشية وضحاها سوف لن نذهب إلى السينما ليلا، بين عشية وضحاها نشعر حين يغشى الليل بأن البادية تسيطر على الأمور. بين عشية وضحاها نطرح أسئلة ونحل مشاكل لم تكن موجودة سابقا.

وهكذا فإن الغابة التي نبصرها هناك على طرف الروابي، في أعلى المدينة، هذه الغابة تحارب الآن ، لن يذهب إليها المحبون للتعانق . وهكذا فإن الغدير التي نكشف باتجاه الشرق في هذه الكتلة الخضراء المتروكة في سفوح الأكواخ القصديرية، هذه الغدير تحارب. لن يذهب الأطفال للقبض على صغار الضفادع في علب المصبرات الصدئة. الرجال يحاربون، الممرات تحارب. الينابيع والسحب تحارب. إنها حرب ذات حدود مبهمة بألف وألف مركز ثقل.

باتجاه الحديقة العامة الكبيرة زعزع انفجار الصمت الجاثي على المدينة بخلفية قوافل ميمّمة صوب الجنوب. صفارات الإنذار تنادي متعاقبة الواحدة تلو الأخرى. صفارات الإنذار! الأغاني الرتيبة لمدن الطوارئ. في ما مضى كانت تشير إلى الساعة منتصف النهار، أما اليوم فلا توجد ساعة واحدة غير جديرة بالذكر.

نشعر بذلك حتى في الليل بانتظار الناس. في نظرات اليقينيّات. الحقل الذي نعدّه يطرح حطامه. السريحات لم تأخذ مكانها بعد. المسحوق ليس لنار البنغال والألعاب النارية. مدن حالات الطوارئ! بإمكانك أن تغني أغنيتك السيئة يا صفارات الإنذار. هناك في الأعالي لا تزال النجوم نجوما. نترقب أن تحوّل الأحداث الطبيعة. يمكن أن تنفجر قنبلة. الأرض تدور. يمكن أن ينحرف قطار، الأرض تدور. يمكن أن تنفجر قنبلة في الحديقة العامة الكبيرة للمدينة، الأرض تدور. هذا الطبع الهادئ للكون له شيء مطمئن وهائل في الوقت ذاته. مطمئن لأنه يمنح إيقاعا لأبدية لا تنكسر. هائل لأن هذا الطبع الهادئ يشبه لا مبالاة عجيبة.

فكر سعيد في مشهد مسرحي مضيء دائما، في الوقت الذي ما يزال فيه مزيّنا بديكور راح الممثلون يلعبون أدوارا أخرى غير التي تصورها الإخراج.

من لحظة لأخرى.

الحرب ولو كانت عادلة، هي عادة صعبة الاتباع. عادة تتبّع إلى أن ينسجم الديكور لوحده مع اللعبة الجديدة للممثّلين.

ودائما في المدينة دورية سيارات الشرطة بموسيقى المزمار المرضية. ودائما القوافل الميممّة صوب الجنوب.

نظر سعيد إلى ساعته: العاشرة ليلا. لن تجيء لوسيا: حظر

التجول. وهذا الصوت القادم من جهة الحديقة العامة. قبلات أقل جرّاء الحرب. زمن يصبح أكثر طولا بسبب الحرب. نجوم تأبى غلق عيونها في سهر ليل الحرب.

●●●

طلع النهار على مطر منح المدينة وجهها الخريفي. باتجاه الشرق لا نبصر الروابي التي قضمها غسق سميك. وباسترخاء، وعلى مضض، كانت اللقالق ذاهبة. لقد كان سعيد يحب الخريف. كان من هذه السلالة الغريبة، خليطا من الفنان والمنطقي، ينجّر وراء الاتساع الممتد لخرافة ويرتعش أمام الشعر المعدني للجرّار، وأمام لوحة طبيعية للخريف، لوحة طبيعية لخريف بلدته، يصبح سعيد تلميذا ينتظر أن يقرع جرس الثانوية القديمة. الخريف ناعم كوشاح امرأة. في الخريف تولد أجمل الأحلام وترقص الذكريات رقصة الفالس.الربيع رجولي كثيرا، ينقصه الدفء الحميمي، إنه أقرب إلى ثري حديث العهد بالمال، من السفاهة بحيث يظن أنه ملزم بوضع زهرة في عروة سترته. الخريف أكثر كتمانا. إن له عيونا متعبة للأسف الذابل. لقد منح أدب العصابيين الخريف أحاسيس سيئة، إن الغرب، في هوسه بالملحمة، وفي حبه للنّحيب الرصاصي سوّد كل شيء. الخريف: عيد الموتى، 11 نوفمبر، إنزال 1942... احتفالية كاملة ومرسمة كارثية ولدت كي ترتدي هذه الشهور المعقدة والانسانية لباس الحداد الأوروبي على طبيعة منتحبة ولكنها ليّنة. نزعة همجية ورعة جعلت من الأقحوان شاهدا على الشهداء والأزهار تراوح مكانها في سفح النصب التذكارية.

وصلت لوسيا في حدود التاسعة. وضعت الجرائد على المكتب الصغير الذي يحتل مركز الغرفة الوحيدة للشقة الصغيرة، نزعت واقيتها الرّاشحة شموسا صغيرة. وقبل أن تقول له صباح الخير

سألها ملخصا بسرعة:

– أليس لك درس هذا الصباح؟

– فقط هذا الصباح. هل أنت مسرور؟

عليك أن تطلب من رجل إن كان مسرورا عندما تلتقي به شموس صغيرة...

ومع ذلك فإن عيون سعيد كانت ثقيلة من العناء. وكان صوته مبهما. لقد احتارت لوسيا:

– لم يحصل شيء على الأقل؟

– وماذا تريدين أن يقع؟

لوسيا تدرّس في مدرسة شهيرة بالمدينة منذ ثلاثة أعوام. لقد احتفظت من بروفانس، حيث ولدت، بهذه النبرة التي نعرفها والتي تقع تماما في حدود الشعر والسوقية المبهمة. هذه النبرة هي موسيقى في صحة جيدة. مذ ابتدأت الحرب أصبحت لوسيا مرتابة في أمر سعيد الذي تغيّر، كما ترتاب أية امرأة. لقد قلّل الخروج معها أو كاد ينقطع مفضلا رؤيتها في بيته. أصبح رجلا لا ندري إن كانت له هموم أم أنه ضجر. يعيش على أعصابه كعلامة موسيقية محمومة ترتعد راقصة على الأوتار المتوترة جدا لقيثارة متيّمة.

في أعلى الركن الحميمي، في إطار زجاجي محفوف ببساطة كبيرة بورق بنّي يمكن رؤية جسر، ومستند إلى مدخله: سعيد. إنه جسر سعيد. وكانت لوسيا تتابع نظرة سعيد، أو هكذا خوّلت لها نفسها. ثم سألته بصوت طفولي.

– ألا يزال قائما؟

هذا السؤال جعل سعيد يضغط على فكيه بقوة حتى اصطكت

أسنانه. وبشبه صعوبة أجابها:

ولم لا؟

على أن لوسيا لم تلّمح، على أية حال، إلى قدر هذا الجسر الذي كان السعادة الحقيقية الأولى لسعيد. وبارتباك، وللاعتذار عن خطأ لم يرتكبه، شدّد هذا الأخير على يدي لوسيا، يدان باردتان جعلتاه يعرف بأنه محموم.

طبعا، إنه قائم. عمل متقن، أعدك... وكمن يحدث نفسه قال بسذاجة مفعمة بحماسة المراهقين الذين يبررون مآثرهم الصغيرة: "لقد جعل الطريق تربح أكثر من ستين كيلومترا. هل تعرفين ماذا تمثل ستون كيلومترا بالنسبة لنا. لقد ضايقتني هذه الأكاديميات المحدودة بما فيه الكفاية: الأرض مائعة كثيرا، الصخور منحلّة. كنت في مواجهة تجّار القطران والحصباء الذين كان في مصلحتهم أن يسلك الدرب أطول الطرق. وتجار عرق العرب هؤلاء لم يجدوا سوى هذه الحجة: التربة غير مناسبة.

ذهب سعيد إلى مكتبه وأخذ جريدة لم يقرأ إلا عناوينها، مسألة أخذ فكرة. واستمرت لوسيا تحدّق في الجسر، جسر جعله المنظر المحيط به صغيرا جدا وهشّا مثل مصافحة بين عملاقين لهما وجهان عدوانيّان: الضفّاف. مع أن الضّفاف القريبة تبدو متحدية والشعاب تسقط في الوادي الجاف تقريبا.

مستندا إلى متراس الحلم وحاجز الجسم ذهب سعيد يتعقبّ نظرته. وفي اللحظة التي فاجأته فيها الصورة، ربما كان يرى جسورا أخرى، دروبا أخرى، وهادا أخرى مهزومة، لججا أخرى مقهورة آل عداؤها بفضل قوة الجسر إلى التنسيق المفروض والمثمر للضدين.

رجع سعيد بمحاذاة النافذة، ودون أن يدير رأسه للمنظر العام

العارض نفسه عليه، طلب من لوسيا تحضير قهوة.

دائما مطر في الخارج. لم يكن المطر يبكي. كان ينفجر ضحكا، سخيًا، ثرثارا، مشوشا. الغيوم الواقعة في فخها جراء حب المغامرة فصلت إلى الأبد المدينة عن السماء، وأعلن المذياع:

"هذه أخبارنا ..." لم يعلن المطر سوى فرحة التلهّي ... ومن على الزجاج المروي قالت قطرة: إنني أنتحب بلا حزن. وعلى بعد مئات الأميال أكّد مذياع من دون قناعة: رغم الأحوال الجوية السيئة فإن قوات حفظ الأمن نجحت في إقامة الجهاز الأمني للأهداف التي سطّرتها..." وأجابت قطرة الماء منفعلة كوريد أو كشعرة مجعّدة: الناس الذين نحسبهم متحضّرين هم بشر حمقى إلى درجة أنهم اعتقدوا بأنهم محقّون عندما اخترعوا المطريّة... البارح في قسنطينة انفجرت قنبلة من صنع محلي ... إنني المطر، إنني عار كقنبلة... تم القضاء على خمسة عشرة إرهابيا... إنني مطر لأنشودة الأطفال الصغار... إنني مطر للحوقات الغائصة في الوحل... إننا نسيطر على الوضع. في ما مضى كان الفلاح هو الذي ينتظرني وفي يده مقبض المحراث... الطائرة المروحية لم تقدر على الإقلاع... وأنا المطر الذي يطير في كل جهة، وعندما أنساب على جبهة إنسان حقيقي فذلك للثأر للعرق والدم... استقبل الحاكم أثناء نزوله من القطار...

صرخ سعيد في وجه لوسيا عند عودتها من المطبخ الصغير حاملة فنجانين من القهوة..

– يا إلهي! ألا تغلقين المذياع!

– ولكن، ما بك أنت؟ سألت لوسيا بنبرة حزينة ولطيفة.

على جبهة سعيد كانت قطرات كبيرة من العرق تتحدث.

وكان المطر ينهمر في كل مكان.

كان الدكتور لوجوندر إنسانا كريما. عيناه كانتا تقولان ذلك. عينا خروف حذرتان وجامدتان. كان الدكتور لوجوندر يفكر بعينيه. والكل يعرف في أي شيء يفكر. كان انضباط ملبسه يدعو إلى التفكير في الأناقة شبه الجامدة لموظفي الخطوط الجوية الفرنسية. كان جسيما وصاحب شهية في الأكل. وكانت له طريقته في القول: "سأزيد قليلا" تدعو إلى الابتسامة عند إقامة علاقة هندسية مضبوطة بين هذا القليل والحجم الذي يحتويه صحنه.

كان يحب لوسيا كما في روايات الأربعة فلس[1]. نجد أحيانا في روايات الأربعة فلس غراميات لا سعر لها. ولو أحبته لوسيا لأصبحت الرواية بقيمة ثمانية فلس. لم تكن سوى رواية بأربعة فلس. حتى روايات الأربعة فلس بحاجة إلى أبطال خرافيين. لم يكن للطبيب المسكين لوجوندر رأس ملحمي أيضا. وأكثر من هذا فإنه يشرب البيريي. أثار قرحة المعدة، كما يعتقد. غير أن البيريي جعله هذا المساء يحن إلى وطنه. وعندما كان خادم الفندق يقدم لهم الطعام مجاملا جسد حنينه بهذه الكلمات القادرة على التأثير على معدة أكثر من تأثيرها على قلب:

– هذا لا يرقى إلى "البيستو"[2]

لوسيا تحب هذا الطفل الكبير الذي يحب "البيستو". عندما نحب كثيرا... في حانة المطعم عساكر سكارى يعيدون ألف مرة الأسطوانة ذاتها. كان المطعم يبتسم ابتسامة من النقود والكحول. لم يكن الأبطال متعبين. أتساءل الزورق المترنح في المحيط يوما

عن أية خاصية مشتركة بينهما؟ ماذا يفعل العساكر هنا؟ وماذا يفعل القارب المترنّح في المحيط؟ هذا المحيط الذي يتظاهر بتحمله ليهرب بعدها عندما يبلّغ عن رفضه للحضور المستهجن.

في وقت التحلية قال الدكتور لوجوندر بصدق لا جدال فيه، ومن دون استهلال:

– لوسيا، هل ترغبين في أن تكوني زوجة لي:

لم يكن لهذا الرجل ذوق التسلية، إذا اقترح الزواج فلأنه يتحدث عن الحبّ. كان من الصدق في هذا الولع غير المتبادل بحيث يشبه أبلها. البلاهة أحيانا هي الفضيلة القاصرة على الحب الحقيقي.

– اترك يدي من فضلك، قالت لوسيا متضايقة أكثر منها قلقة، ولكن بكثير من الصرامة وبكثير من الأدب، هي لا تعرف الخداع.

عينا الدكتور لوجوندر حينئذ، عينان دائريتان، متوسلتان، عينان عديمتا المهارة وطيّبتان. الصّفر المزدوج المأساوي في هامش قصيدة خائبة. ولكن يستلزم صفران لكتابة اللانهاية.

– لوسيا، أنت تعرفين أن أبي مات قبل فترة غير بعيدة. لقد ترك لي مكتبه. الجو خانق هنا. أنا وعدت أمّي بالعودة إلى أيكس. في الطابق الثاني، في أعلى متنزّه ميرابو، يأتي الصفصاف لملامسة مكتبي. ألا تحبّين إيكس أون بروفانس ؟

يحدث أحيانا أن يقوم المحبّون بحملات انتخابية. ولكن إذا استطاعت الحجج إقناع منتخب للتصويت في صالح س أو ع، أثناء استفتاء الأهواء لا يمكن الإجابة سوى بنعم أو لا، ليس للحب برنامج. الإخفاق الانتخابي ممنوع.

– أنت تعرف بأني أحب سعيد.

كان الفم الذي قال هذه الكلمات أكثر استدارة من عيني الطبيب. ثمة كلمات ليست أكثر من رصاصة.

روبير يعرف سعيد، ويحبه أيضا.

– وهو؟

كانت لوسيا تفكر متكهّنة بأن قلبها يتكلم خبط عشواء. لا يمكن أبدا ضمان حب الآخرين. سطت حرارة منشرة على خديها. وانتهت بالقول:

–روبير، ما رأيك لو خرجنا ؟ الجو خانق هنا .

وبينما كانا يتجهان إلى مستودع السيارات خلف قصر العدالة، اقترحت:

– هيّا نزوره، إنه متعب. إن مقام طبيب يكون هناك عنده.

كان الدكتور لوجوندر إنسانا طيبا. كان يحب لوسيا كثيرا. لقد قبل. التاسعة. قالت أجراس البلدية الجاثمة على أعمدتها الرخامية الطويلة الشبيهة بأرجل جراد خرافي.

●●●

كان سعيد يقرأ أو يحاول القراءة لحظة مجيء لوسيا ولوجوندر. أغاظته هذه الزيارة. ولكنه كان إنسانا خلوقا. يمكن معرفة إنسان خلوق من خلال ابتسامته المنادية: عجبا ! أية مفاجأة هذه ! المسرح الفرنسي درسٌ في المجاملة. وكان سعيد، في حقيقة الأمر، بحاجة إلى المكوث وحيدا. عندما نكون لوحدنا نفكر. وإذا كنا ثلاثة نزايد. والحال أنه لا يريد الحديث. لم يكن يملك من العافية ما يكفي لذلك. ارتاح الواصلون وقبلوا القهوة التي اقترحت عليهم. لقد شرب سعيد كثيرا هذه الليلة، أعتقد أنها تساعده على النوم. وعندما كانت لوسيا في المطبخ، تفحص روبير

المهندس بسرعة. لم يكن بهذا الأخير أي أذى. وما كان مريضا. كان متعبا. وعندما يفهم الطب بأن الأعصاب لا تداوى، سيدرك بالتأكيد أنه تطور. يحدث أحيانا أن تكون السعادة هي فن الشفاء الوحيد الممكن. ولكن لا يوجد ضمان اجتماعي في بلاد السعادة.

– أنت جميلة ! قال سعيد للوسيا عند وصولها.

وأكد روبير.

– إنها فعلا جميلة.

من الأيام الأولى أنتبه سعيد إلى أحاسيس الطبيب. لم يكن يظهر أية غيرة. لا يمكن أن نغار من الدكتور لوجوندر. كان يزعج على الأكثر. وكان آخر سلالة. لعل قلبه حدثه بذلك.

ما كان يحسد عليه سعيدا ليس حبه للوسيا، بل، لا شعوريا، هذا الشباب، هذا المستقبل، هذه الطاقة من الحياة التي يحرزها عن هذا الإنسان الذي لا يكبره سوى بعدة قرون. كان يشعر بأنه غاز. هذا الإحساس يغمرنا دوما أمام الناس الذين يمشون في اتجاه التاريخ، أما هو فكان مدفونا في تاريخه. كان روبير هادئا ومسنّا مثل الشوارع الصغيرة الهادئة والمسنّة لمدينته الصغيرة الفاتنة. هذه الشوارع الخفية اللينة التي تلامس جدران منازل بروفانس، كان يحمل على ظهره وفي عينيه ألفي سنة من الأخلاق المضبوطة.

وصل الحديث إلى هنا:

– ما كان عليهم أبدا قتل المدرّس.

مرّر سعيد يدا على شعره المشعث دائما. كانت الشروحات ترهقه. إنه لأمر منفّر أن نشرح باستمرار ما يبدو لنا بدهيا. بيد أنه تدخل:

الحرب ليست جميلة. كان على قي مونرو أن يبقى في غشيمه، زد على ذلك

فإنه يجب معرفة كل شيء، لقد انقضّت الدعاية على جثته...

– ولكنك في نهاية الأمر لا تقبلهم، سأل روبير.

– قبل هذا من هؤلاء الـ "هم" ؟ قال سعيد بحركة مازحة. قلت لك يا طبيب بأن الحرب ليست جميلة. التاريخ لا قلب له.

أعاد كمن يريد الإقناع أكثر.

– التاريخ لا قلب له.

كانت لوسيا جالسة على مسند الأريكة ونصفها الأعلى يستند إلى الكتف اليمنى لسعيد. لقد حضرت لوسيا المناقشة دون أن تشارك فيها. وكان الحزن يزاحم عينيها الجميلتين الفاتحتين: وقالت بارتخاء:

– الهوة عميقة جدا يا سعيد.

– عميقة جدا. أخاف أن يصعب ردمها الآن وقد سال الدم. التمشيطات، الاغتصابات، التعذيبات، الاغتيالات بالجملة، السجن، الاعتقالات التعسفية...

قاطعه روبير:

بشرفي ! أنت تتحدث كوطني.

من دون أيّة مجاملة، وبصوت عال وكلمات واضحة، وببسمة هازئة منحت شفته السفلى حجم حالته العصبية وغيظه، ترك سعيد كلماته تشعّ:

– لا أدري إن كنت وطّنيا. ما أعرفه، وأعرفه جيدا أني جزائري. بل إني أخاف أن أكون قد أصبحت شيئا آخر...

لم يتجرأ على الاعتراف، لأن لوسيا كانت تمرّر يدها على شعره، يدها، نورس نديّ على موجة غاضبة، لأن روبير لم يكن سوى إنسان طيب، لم يتجرأ سعيد على البوح بأنه يخشى أن يكون قد أصبح مضادا للفرنسيين.

كانت هناك ألف حجة لذلك. ولكن منطقه منعه. وقلبه. وذاكرته. عندما يصبح الغضب احتقارا هادئا تبدأ العنصرية.

لم يصل سعيد إلى هنا بعد.

لقد هدأ.

ثم نهض فجأة وكاد يفقد لوسيا توازنها وهي لا تزال جالسة جلسة فارسة على مسند الأريكة. اتجه نحو مقعد الاستراحة وقال موجها ضوء مصباح صغير نحو الإطار الزجاجي:

– الهوة عميقة جدا. إنها هاوية يتعذّر ردمها.

– ما العمل إذن ؟ تساءل الطبيب.

– بناء جسور. أجاب سعيد بنوع من السّعار.

– معنى ذلك ؟

– التفاوض قبل فوات الأوان.

– مع من ؟ قالت لوسيا.

– مع الضفة الأخرى !

"تفرقوا الآن، عما قليل سيكون حظر التجول".

●●●

بيد أنه يجب تخريب الجسر، يجب، يجب...

– يا بنيّ. لن تتزوج فرنسية أبدا.

كانت مّا مسعودة تتنفس بوهن. لقد كتبت جدة سعيد وصيتها. وأضافت:

– أبدا ![3] محال[4] ! وتنهدت.

جدة سعيد تملي وصاياها الأولى.

في أحد أركان الغرفة، قرب المدفئة، ثمة عجوز، عمة مسنة جدا، لالّة وردية أكثر قدما من ذكرى، تبكي ناشقة.

إيدير، عم سعيد. طبيب استقر في باريس، وكان هنا. محرجا، متأثرا، مستهجنا.

فتحت مّا مسعودة عينيها.

فرنسية... أبدا.

ثم أدارت رأسها بصعوبة تجاه ابنها، ودون أن تتخلى عن يد سعيد، أردفت:

– وخنزتك[5]، أين هي ؟

"الخنزة" هي سيمون، زوجة إيدير. خنزة لا تترجم إلى الفرنسية. هذه الكلمة قد تعني القذرة أو مثيرة القيء. تلك التي لا تغتسل. تلك التي ليست نظيفة. في الواقع، تلك التي ليست من عندنا. وبوضوح، تلك التي ليست الكنة التي كنت سأختارها...

الأجنبية !

بجهد فوق بشري هزّت مّا مسعودة يدها اليمنى، وبسبابتها الشفافة تقريبا لامست خدّ ابنها:

– الخنزة سرقت ابني، صرّحت بوقار.

وأكدت ملتفتة نحو سعيد:

– قتلت عمك.

كانت هذه المرأة الموشكة على الموت تدافع عن أسفها وتعلن مبادئها.

سكت سعيد وإيدير.

مّا مسعودة هدأت من جديد. واستغل إيدير الفرصة لحقنها. كانت العمة العجوز، في ركنها قرب المدخنة تحدق في الحرائق المجنونة لعينيها الهامدتين.

غادر الرجلان غرفة النوم وذهبا إلى سطح ذي زجاج أحمر تغطيه شجرة تين. جلسا مباشرة على أول تخم لدرج نازل إلى حديقة صغيرة أهملت منذ وقت ليحل محلها فناء دواجن فوضوي، بقي للمساء قليل من الشمس. وكان للسماء لون أزرق متغطرس.

التحقت سيمون بزوجها:

– يبدو لي أني سقطت مثل شعرة في حساء. قالت:

– بالضبط. أجاب سعيد.

وأضاف:

– هيا نذهب لرؤية جدتي.

لم يتحرك إيدير. كان ينظر إلى شجرة التين.

●●●

الحياة والموت شيئان مسرحيان. ما زالت العمّة والمدخنة تبكيان.

– سعيد، ابني..

غدا الصوت أكثر فأكثر بعدا، سردابيا. الغرفة تفوح بالحمى والعرق. وخادمة في المطبخ تحرق البخور في كانون(6).

– يمّا، هل عرفت سيمون ؟ سأل سعيد.

– مّا مسعودة تفهم الفرنسية جيدا وتتكلمها بالمقدار الكافي للإبانة عن مرادها. غير أنها، وبإصرار نافر قريب من الدلال أكثر منه إلى الرفض، أجابت بالعربية. ومن حظ سيمون أنها لم تفهم. وبالعربية أخبرها سعيد بأن سيمون تنتظر صبيّا. حينها اضطربت العجوز قليلا، ولأول مرة تنظر في وجه كنّتها إلى يسار هؤلاء المرشحين لامتحان شفوي، أولئك الذين لا يعرفون أمامهم صمت الممتحن إن كان عليهم الانسحاب... أم لا. كانت نظرة ما مسعودة فوطبيعية ولكنها هادئة.

– قل لها تجلس على السرير. طلبت منه.

كان سعيد يترجم، وكانت سيمون شعرة في الحساء حقا. ومع ذلك شدت يدها بيدها الطويلة الشاحبة التي تجري عليها الأوردة كالطحالب، وهدأت من جديد.

ماذا تقول سيمون، الشابة الباريسية ؟ وماذا تقول لها هذه اليد، مع أنّ الدم الراحل عنها يكرهها. يوجد في كل زواج نسميّه ببشاعة الزواج المختلط شيء مفارق أو لا معنى. هؤلاء الذين يلينون أمام هذه الدولانية السهلة لا ينكرون. كل هذا التغاير، الأسمى أحيانا والمأساوي دائما، بأن هذه الامتزاجات تخفي جرائم في نهاية الأمر. لهذا استقر إيدير في فرنسا بعد إتمام دراسته. إن حلا سهلا يؤدي دائما إلى حل آخر أسهل. أبوه، رجل

قدّيس مات من فرط الكآبة والخجل. ومع أنها كانت نعسانة، لم تتخل مّا مسعودة عن يد سيمون. أمّا سعيد الذي اقترب من العمة العجوز فقد سألها عن أخبار أولادها، فأجابته بأنهم في الجبل، ودققت:

- كلهم. كلهم في الجبل.

قالت هذه الكلمات بالعزّة نفسها كما لو أنها قالت: ذهبوا إلى مكة للحجّ.

لم تتحدث العمة المسنة كثيرا. ذهبت للبحث عن نظراته الضائعة، وحملت في صداريتها مسبحة وراحت تسبّح.

"إنه عالم بعيد"، فكرّ سعيد.

استرجعت مّا مسعودة وعيها ونادت حفيدها:

- قل لإيدير يجيء.

ذهب سعيد للبحث عن عمّه الذي كان ما يزال جالسا على تخم الدرج. كان يبدو بعيدا هو الآخر.

تحدثا لحظة.

- لا أظنها تقضي الليلة. وسيمون ؟

- إنها جالسة قربها.

- اتجها شطر الغرفة. كانت مّا مسعودة تمسح جبهتها بوشاح كان ملكا لأمها.

- أعطوني قهوة. أمرت.

يجب القول أن ما مسعودة استهلكت من القهوة خلال نصف قرن ما يكفي لطمأنة مزارعي البرازيل كلهم. ولأن سعيد وسيمون فاجأتهما هذه النزوة، نصح إيدير: "أعطوها قهوة"، ثم أضاف:

"ليس لنا ما نرفضه لها الآن".

ثمة كلمات ثقيلة جدا.

ناولتها الخادمة فنجان قهوة. انزلق الإناء من بين الأصابع المريضة وساح السائل على الغطاء المخدد ذي الألوان الثرثارة. لقد وجدت ما مسعودة القوة الكافية للاعتذار. قالت لابنها بصوت لا مبال:

– أتنتظر صبيا ؟ سمه فرانسوا وسيذهب إلى المدرسة في باريس.

كانت تلك آخر كلماتها.

نطقتها بالفرنسية.

فهمت سيمون.

ثمة كلمات ثقيلة جدا.

يستلزم تسعة أشهر لإنجاب طفل. ويستلزم أكثر بقليل لصناعة جسر. وجسر سعيد وجب تخريبه. أكيد، ليس هو من سيقوم بالمهمة. فقط، طلبت منه إيضاحات تقنية، طريقة من طرق التحسس، الأماكن الأكثر قابلية للعطب. هناك من الناس من يكفيهم تحطم كأس لمضايقتهم، لتحريك شعورهم. أما عندما يتعلق الأمر بجسر!...

نام سعيد نوما ملعونا كنوم ذوي المروءة. يجب أن يخرب الجسر. بطن الأرض يحتج. اشتعلت براكين. السماء تمطر فولاذا ومبادئ للموسيقى رائحة البارود. قنبلة، إنها أكثر من دماغ. والقنبلة تنفجر، والدماغ ينفجر. وعمل الناس المهشم إلى قطع صغيرة ينهار مع الشطآن التي تصالحت آخيرا في عرس عديم الجدوى. والعمال الثلاثة الذين سقطوا في الوادي، الذين ماتوا، الذين ماتوا لأجل الجسر، الذين ماتوا في جسر الشرف. العمال الثلاثة الذين أخرجتهم آلة رفع الأثقال ملفوفين في غطاء مدرج بالدماء، العمال الثلاثة ماذا يقولون ؟... وفي أماسي الأيام، عندما يغطس معذبو الأرض خبزهم في اللبن، عندما ينساب ناي في وقت الراحة، ماذا يقول...

المعذبون في الأرض ؟...

ولكن الجسر وجب أن يخرب. ليس للناس ما يقولون. يجب أن يفعل الناس كل شيء. الحرب لها كلمتها وهي التي تقرر. ذاك المدعو علي قال: ستبنون أخرى... والوادي الذي يستهزئ أخذ

بالثأر. في سكيكدة هناك الجسر الروماني على الاقل... على جسر افينيون يرقصون، يرقصون. لن تمر الدبابات على جسر سعيد. وجسر سعيد يقول: سأنتحر بإطلاق رصاصة على رأسي. هناك ثقب الوادي يزداد استهزاء. إنهم هنا، العمال الثلاثة الذين أخرجتهم آلة رفع الأثقال في غطاء مدرج بالدم، إنهم يسألون. الجسر، أين هو؟ من الغباء عدم معرفة سبب موتنا. ولكن سعيد لا يجيب. الجسور هي التي ترقص اليوم. إنها ترقص إلى غاية الاختناق، ثم تنهار. الموت يكز على أسنانه. ليس به برد. إنه يفتعل رقصة. السربندة للجسور التي تتظاهر بالجنون... ما مسعودة تمشي على الجسر. إنها خفيفة مثل فكرة. إنها تصرخ متطلعة إلى الهوة: لن تتزوج فرنسية أبدا. ويؤكد الصدى: فرنسية أبدا. أشجار الدفلى تصفق. الغربان تقف وقفة الجندي. كيبية، والية تلقي خطابا: أيها السادة، سيشهد هذا الجسر، وإلى الأبد على حضور العبقرية الفرنسية. أصدق ذلك !... والوادي يفيض. أطنان وأطنان من العرق تخلق بحيرة. ما مسعودة تشرب قهوة حمراء. إيدير يركب الميترو. الدكتور لوجوندر يأكل "البيستو". سيمون تنتظر صبيا. سعيد يرتدي عتاد غواص ويتجول في ذكرى...

– لوسيا ! لوسيا !

صرخ علي فايقظه صراخه، إنه ينزه عينيه في الغرفة، عينين مشدوهتين كعينين خرجتا من قاعة سينما مشبعتين بالفيلم، بينما العرض الذي ينتظر في الخارج يواصل التمثيل.

– اشرب هذا، طالب إيدير

كانت عينا سعيد ترسلان نجوما مكسرة. لقد برد.

سوقي المستنقعات هذا. ذكرى أخرى عن هذا.

عين الجسر في الإطار الزجاجي في أعلى الركن.

كانت لوسيا في غمرة الدرس عندما طرق المدير باب قسمها، كان السيد ريفيير رجلا قصيرا، أهلا بالعادات المستهجنة، ممتلئا، ذا نظرة مائلة، وله طريقة في حك أعلى فخذيه ويداه مختبئان في جيوب سرواله، كانت من خواتم المضحكات واحدث الفواحش بحيث يمكن التكهن بأن هناك ثقبا في البطالة.

الدروس الوعظية مختلطة وهو المشرف عليها، وكان مرفوقا باستمرار بكلبة. ارستقراطي ألماني بخفين يعتقد أن أحد أجداده هو الأستاذ نامبوس، يتجول في الأروقة بمظهر غامض. يقال عن امرئ بأنه مأخوذ عندما يكون ذهنه غائبا. عندما يكون ذهنه في موضع آخر. ولكن، أي فرق بين غياب ولا وجود ؟ كان هنالك انطباع دائم بأن السيد ريفيير يقوم بتحقيق. نذالته ورعونته ذائعتان رسميا. ولأنه ليس ذكيا لم يكن يهاب احدا، ولأنه لا يهاب احدا، ربما استنتج مسؤولوه بأنه ذكي، لم يكن يخفي عنصريته، ولكنه لم يضبط في حالة تلبس.

كان النظام هو حجته العليا لإنسانيته الضامرة. وهكذا، في رمضان، بحجة عدم رفض عمل إضافي على مستخدمي قاعة الطعام، يمنع على الداخليين وجبة السحور، الأمر الذي يجعل الصيام اكثر صعوبة "المستخدمون بحاجة إلى راحة هم أيضا".

في نادي المدرسة، المسير كليا من قبل التلاميذ، حذف الجرائد تقريبا، حذف وليس منع الجرائد التي لا تشاطره آراءه. كان يتعذر مثلا ادخال "الجزائر الجمهورية" إلى المدرسة. أما بالنسبة للجمهورية الجزائرية" أو "الجزائر الحرة" فلا داعي لذلك. لا سياسة هنا. كان يردد بإعجاب. ولأن برقية قسنطينة هي اليومية الوحيدة المعتمدة للبلاغات الرسمية، أي نعم. يمكن للنادي أن يختار الاشتراك في هذه الجديدة التي تتمتع باحتكار كلي منذ انطلاق الحرب، وقد أظهرت مهارة في فن الكذب والذعر والحقد.

إذن، وحسب نذالته المعهودة، فقد فتح السيد ريفيير، المدعو "الأميرال" الباب دون أن ينتظر الإجابة، نهض الطلبة بشكل انعكاسي أكثر منه احتراما، لأنّه لم يكن محبوبا لا من الفرنسيين ولا من المسلمين. لقد اتفقت الآراء حوله لأسباب مختلفة.

الرّجلان منفرجتان قليلا (أن تكون أميرالا أو لا تكون). كلباه إلى جانبه نصف مكفوفين ومخبولان كلية، من دون أن يسلم الأميرال على لوسيا انتصب في وسط المصطبة ويداه في جيبيه دائما:

– سادة السنة الرابعة، هناك شيء ليس على ما يرام. ليس مديركم هو الذي يحدّثكم. إنه فرنسي يتوجه إلى فرنسيين آخرين: وبحكم شعره الأبيض فإنه يتصرف في الحرية التي يخوّلها له حق البكورية...

لن تنتهي هذه الجملة أبدا. لوسيا وتلاميذها امتنعوا عن الضحك خشية القهقهة. الشعر الأبيض، حق البكورية: : كان السيد ريفيير أصلعا كبيضة. ولكن، الكل يعلم أن الحدائق البائرة وحدها تنتج أزهار البلاغة.

وأضاف الأميرال:

–إننا نعيش منذ شهور عصيانا حقيقيا (يا جدي. يا جدي، لم تكن بحّارا حقيقيا.) في فناء المدرسة، كثرة منكم، وفي العادة هم أنفسهم، يمرضون كأنهم يتعمدون ذلك. في أول نوفمبر مرض المتماثلون للشفاء من جديد، وفي 8 ماي ساءت حالتهم. أيها السادة، هذا المرض لا قلب له...

هزت أكتاف متمردي السنة الرابعة ضحكة صعب التحكم فيها.

– من اليوم فصاعدا يرجى التسجيل في العيادة قبل ثمانية وأربعين ساعة.

الساعة ساعة جلال.

اتجه الأميرال المتبوع بكلبيه صوب الباب معترفا بجميله. عدل رأيه وعاد إلى مكتب لوسيا:

– نسيت يا آنيسة. تلقيت للتو هذا من المفتشية الأكاديمية.

ناولها ظرفا مفتوحا. إنه الإذن بالتوقف المؤقت للوسيا. لقد قبلت الظرف المرفوق بالانتداب كأستاذة للغة اللاتينية في متوسطة بكليرمون فيرون. عليها الالتحاق بمنصبها في ظرف خمسة عشرة يوما.

الصمت هو حياء المتّيمين.

لما علم بأن لوسيا ستغادر الجزائر بطلب منها لم يستطع سعيد، بل لم يعرف كيف يعبّر عما يحّس به. أمام الفتور الواضح للرد. احتارت لوسيا نفسها. سعيد لا يكذب. لوسيا تحب سعيد. ولكنها لا تحب بلد سعيد. سكت سعيد. لقد ابتدأت بعض الهواجس في الظهور على صدغيه. لقد ابتدأت نظرته تتعقد. نظرة عميقة تذهب أبعد من الفكر. كانت هذه النظرة نظرة كل أولئك الذين رحّلهم التاريخ عن عاداتهم. التاريخ لا يفاجئ الغافلين فقط ولا يصدم فقط أولئك الذين لهم مصلحة في معاكسة مساراته المشوّومة إن صح القول. المؤرخ النزيه، الذي يكون حكيما بالضرورة، سيقول لماذا لا يطرح، الفلاح مشاكل من هذا النوع. لأن الفلاح في نهاية الأمر، لا يخشى شيئا من هذه المشاكل لأنه الحل نفسه.

لا يوجد عمر للحب حتى يذوب مثل سبيخة من الثلج...

لوسيا التي تحسن الكلام عن اسم الزهور. لوسيا في موسيقى ساعات الغسق الأزرق. لوسيا، لوسيا دائما. وسعيد يعرف أن الجهات الأصلية ليست كاملة.

لوسيا البعد الخامس، لوسيا الحب الهادئ والأكيد. لوسيا القارب ذو الأجوان الصخرية المنقّطة بالحصي الملساء. لوسيا في

شارع العرب ذي البلاط الدائري البالي كجبهة عبقرية أو مريضة. شوارع بيت سعيد لها أرصفة صغيرة. شوارع بيت سعيد تكتب على الجدران: "تحيا الجزائر حرة..." (8)

لوسيا غابة البلوط في الساعة التاريخية دائما للأغاني الأولى.

نظرة ثقيلة تذهب أبعد بكثير من الأفكار...

كان ذلك في تسعة سبتمبر قبل مئة ألف سنة.

الضباب يخبئ جسد الجبل بحركة محتشمة لامرأة لطيفة المعاشرة تغطي صدر امرأة خارجة من الحمام بحجاب فوطبييعي. البحر ليس بعيدا. الجوز يساقط على دروب جبل تاكسانة. المقهى الصغير يقضم بعينه المنحدرات الواهنة. باتجاه جيجل بحر المتوسط لم يأت القمر بعد يمكن التنبؤ بالخريف من خلال رائحة الأوراق الصدئة. ليس للحب وجه سوى في عيون الذكرى...

●●●

عندما كان سعيد صغيرا، كان يحدث له أن يأخذ دراجته ويهجر المدينة. في البداية كان كل شيء على ما يرام. قسنطينة منتصبة على صخرتها كنقطة على حرف. الطرق نازلة نحو الساحل بسرعة مدوِّخة. كان ينتشي إذن بهذه السرعة المحصّل عليها بلا جهد. ويذهب بعيدا. بعيدا دائما. ولكن عندما يأتي المساء، يجب العودة، يجب أن يدوس، أن يعرق. أن يجهد نفسه، أن يتألم. يجب ان يستحق سرعة الذهاب. يجب أن يدفع ثمن الدوار المريح للانطلاق. حالة طفل نهم يدخل إلى دكان ويشتري، ويشتري ويشتري ولكن البائع يقترب في ما بعد، يجب التسديد. وليكن القدر منحدرا وجب تسلقه أو تاجرا وجب أن يسدد له حسابه. يجب الدفع دائما:

السعادة لا تسلَف أبدا. كأنها تجد سعادة ماكرة في جعلنا نستدين.

تدفعون في الصندوق. لا شيء أكثر خيانة من الخدمة الذاتية. مجزوزو الفرح كلهم يعرفون ذلك.

سيوجد باستمرار عند كل سعيد في العالم قرابة مع الصراصير التي غنت كثيرا في الصيف مع العنزة الصغيرة للسيد سوغان (9) التي انتهت في فم ذئب كتعويض على وثباتها. كل شيء يجري وكأن السعادة ليست إنسانية. الجدلية الأكثر علما والأكثر جاذبية لن تستطيع أبدا تفسير لماذا لا يملك الصرصور الحق في الغناء الصيف كله دون أن يتصاغر فيما بعد أمام نملة، نموذج كريه للفضائل البورجوازية كلها. الجدلية الأكثر علما والأكثر صرامة لن تستطيع إقناع كل سعيد في العالم بحكمة السيد سوغان وبجنون العنزة الصغيرة التي تذهب إلى الجبل لتتذكر بأنها كانت ظبية.

النمل، الذئاب، السادة سوغان هم الذين يشرّعون.

لا يهم! الدركيّون أيضا يشرّعون. سائق السيارة الذي يتلقى محضرا لأنه سار بسرعة سيدفع غرامة، غير انه سيكون قد عرف مجد السرعة. الصياد الذي يُقبض في حالة تلبس بالصيد المحظور ستحجز رخصته، لا يهم! سيهب لنفسه الغابة. المهرب، باحتقاره الحدود يكون قد غيّر تخوم إرثه، الأرض. الصرصور تحدّي الشتاء، العنزة الصغيرة تحدّت الذئب، وبعد قليل، هذا الطفل الذي اشترى كثيرا من الحلوى، أي نعم، هذا الطفل سيتحدّى بطريقته مخرّبي الكرميلة.

المكن قانون
المستحيل قانون آخر
على أية حال ثمة خارج عن القانون
أيها الإنسان الحر. ستخون دائما!

ستخون الضفادع التي تلطخ المستنقعات. ستخون الخفاف

المبّطنة للعقل والقلب المحنّطين المعياريّين. ستخون دفاتر صندوق الاحتياط والاتجاهات الأحادية.

يا صغيري التعيس، محال! طيّب، محال، سأخون هذه الاستحالة، ستعضّ بنانك ندما! طيّب! سأعضّ أصابعي ندما بقدر ما يفعل الآخرون ولكن يجب التفكير سلفا! طيب... ولكن إذا فكرت سلفا أي أمر سأستطيع التفكير فيه لاحقا؟ أنت تعرف الناس السعداء؟ طيب، أنا لا أعرف. ولكنني لا اعرف الكيمياء وغواتيمالا أكثر...

●●●

نظرة سعيد الذاهبة أبعد من فكرة هي التي قصّت كل هذا. تحدّثت عن ليلة التاسع سبتمبر من مائة ألف سنة خلت. عن قمر خيالي ومشوش كان يرقص على بلوط فلّين تاكسانة مثل رصاصة سلوليد على انبجاس ماء مضيء. تحدث عن عيني لوسيا الوقورتين المبلّلتين اللتين ترسمان موسيقى على خلفية من الوعود الصاعدة من البحر. كل هذا التسعة سبتمبر حدث كما يحصل في الرواية. كل شيء يغدو سهلا، أساسا، محتّما. الكتّاب ليسوا بحاجة إلى خيال إطلاقا. هذا التسعة سبتمبر لم يخرج من رواية ولا من أغنية ولا من فيلم. كان تسعة سبتمبر كبقية التسعات سبتمبر الأخرى، مع أحد السعيدين المندهش كإنسان سعيد ولوسيا تقول:

- إنه لأمر طريف، لقد خفت هذا المساء.

كان ذلك في تسعة سبتمبر مع سعيد يجيب: "أنت مجنونة". كان ذلك في تسعة سبتمبر مع إحدى اللوسيات واحد السعيدين اللذين كانا يتعانقان طويلا...

●●●

القضية مستحيلة، سيغدو الفحم أبيض. القضية مستحيلة.

وأنا! وأنا! لوسيا لن تستطيع الذهاب. لأن الأرض كرية. لوسيا لن تستطيع الذهاب لأن اثنين واثنين تساوي أربعة. لوسيا لن تستطيع الذهاب لأن هناك جسورا تحتقر الشطآن...

●●●

جلس سعيد في مكتبه. فتح درجا وأخذ ورقة.

كتب. قصّ. رسم. خربش. كان يقول إني أحبك. كان يقول لا تذهبي. القلم يرسم فالس الشهيق. يقص الحب على زمن اليعاسيب. كان يقص الجسور التي تلامس اللجج. كان يقص القبل التي تنفجر بالآلاف. يتحدث عن البراعم المرسلة عطرا. إحدى هذه الرسائل التي لن يبعثها أحد. إحدى هذه الرسائل التي تحوم حول اسم واحد. إحدى هذه الرسائل التي تبرد في شبابيك الاعترافات المجهضة. إحدى هذه الرسائل التي نضاعفها بالتمزيق والتي نستطيع إعادتها ألف مرة دون أن تكتمل أبدا أو تصل إلى أصحابها.

الصمت حياء المحبين...

لأن سعيد يعرف قصور الرسائل فالكلمات لا تتكلم.

لم يقل سعيد القطار للذهاب إلى الأهل. الجو طيب. الشمس تحتفظ بكل ألقها ولكنها سهلة الاحتمال. العصر كسلان ولين ينظر إلى مرور اللقالق الأخيرة. الدوريات وحدها تذكر بالحرب. والأسلاك الشائكة أيضا. ثمة أطفال يتسلقون نهج جورج كليمانصو أيبين من المدرسة. صاخبين ولا مبالين. لا ندري أية حكاية كانوا يقصون على بعضهم بجدية كبيرة وبحركات كثيرة. عندما يتحدث الأطفال يتركون باستمرار انطباعا وكأنهم يرافعون عن قضية. كأنهم يحاولون إقناع حضور مرتاب. في هذه الساعة يزحمون الأرصفة الضيقة. ليس بإمكان سعيد رؤية الأطفال دون أن يتأثر. ليس لأنه يحبهم على الخصوص، ولكن لسبب غيرته في الواقع. لقد ترك قلبه في المدرسة هو الآخر. أية مازوشية لا شعورية تحث الأطفال على المشيب! سمع سعيد هذه الفكرة وهو عابر: "بشرفي أني رأيت فخذيها إلى هنا!" أيها الصبي الصغير! نخاطر بأن رأسك لن يتجاوز أبدا ركبتي معلمته. انفجر سعيد ضاحكا.

استدار التلميذ الذي أبصر فخذي المعلمة واستنتج باستخفاف عارف: "يضحك وحده. هذا المخلوق مجنون" ضحك سعيد من جديد . فكر بأنه لم يضحك منذ مدة. في هذا العالم المجنون أو الحامل لا شيء يطمئنه أكثر من رؤية وجه طفل. وكان يردد أحيانا: الأطفال ناس طيبون. ماذا كان عليه أن يقدم لشراء قرن من الحمص المخبوش بالألوان أو حبيبات القرع المملحة بالخمسة فرنكات التي بقيت من التعاونية؟ ماذا كان عليه أن يقدم كي يقول. إنه الخميس غدا...

نهج الولايات المتحدة. مقابل المحطّة، ثمة قافلة لا متناهية من الدّبابات والسيارات المصفحة القادمة من سكيكدة باتجاه باتنة. الأوراس يستقبل. لا شيء يساوي قافلة من الدبابات لإعادة حلم اليقظة إلى سياقه. هناك، في منتهى الأفق، تحت جسر سيدي مسيد، الأطلس الصحراوي يلامس المنتهى. على اليسار، دخان أسود كثيف يغطي أجراس معمل الغاز المحروس عسكريا من قبل مجندين مُرد ليسوا أطول من بندقية، وكل ما ابتعد ترك المدينة وراءه، وجد سعيد نفسه في بلد يعرفه. لقد قطع هذه المسافة وأعاد قطعها أربع مرات في اليوم مدة أزيد من عشرين سنة. كان الطاهر جالسا أمام قصابته الصغيرة كما اعتاد سعيد رؤيته. في الساحة الصغيرة للضاحية، كان مسلمون صغار يلعبون الكرة بعلبة مصبّرات قديمة، وكانت محافظهم المقبورة حدودا لشبكة مثالية. كانوا يلعبون حفاة، ربما لاقتصاد أحذّيتهم، ربما ليكونوا أكثر حرية في حركاتهم، تلك الأحذية التي تم شراؤها من رثاث برحبة الجمال لم تكن على مقاسهم أبدا. هؤلاء الأطفال يسكنون في أعلى الضاحية وفي أقصى الحي القصديري المنتشر من المقبرة اليهودية إلى حد الغابة التي لها شكل الجوقة الشرفية، تلك التي غرسها نابليون الثالث والتي ظلت تؤوي مخيما عسكريا منذ التذبذبات الرياضية للوّاء لا تر دو طاسينيي. عندما نشرف على الساحة الصغيرة نرى المدينة كلها وقد تسترت بدخان خفيف مزرق، هذا العرض لم يزعج سعيدا مطلقا. لا توجد أية مدينة في العالم تتقن الحديث مثل قسنطينة.

●●●

إنها صخرة الحب الكثير. هنا قلب الغضب. قسنطينة! علامة تعجب على السهل البهيّ. وأية جبهة كانت أعلى حتى تكون أكثر ذكاء؟ المطر ينساب في الشوارع التي لا تمشّط أبدا، مئة ألف ذكرى. في الشتاءات تتحدث عن شهر ماي. رائعة الروائع حيث

تعشش اليمامات، حيث تستشيط الغربان غيظا، يجب معرفة قسنطينة في الساعة التي تدوم فيها الشمس أكثر من لحظة. إنها تحدٍّ، إنها مهد، ثم قاعدة تمثال وتحدٍّ، إنها سد من الحجارة، إنها قلب قيثارة. سعيد يعرف الأغنية الباقية في حلق الرمال. إنها سلمٌ شرفي لطلوع الشمس. باتجاه المستشفى وجسر سيدي راشد، عندما يعبق الصنوبر برائحة زكية من الدّباغ والحبّ، يجب رؤية قسنطينة تتدفأ تحت الشمس. هذه المدينة كبيرة مثل قطعة خبز. إنها تذكر مقاهيها الشعبية الساكتة اليوم، الأكثر تأمّلا اليوم. تذكر متاهات شوارعها المعقدة كفكرة مشروحة بطريقة سيئة، محلاتها الصغيرة حيث ملسم(10) ابن باديس يجاور مصاصات وجهاز راديو، إنها مدينة قوية. عند النظر إلى جبل الوحش، إلى غابة الذئاب نكتشف عن المنطقة الساهرة بالضاحية. وأيّ متراس كان لارتفاع هذه المدينة المنتبهة لحفيف الأوراق الميتة وموسيقى التاريخ ! اليوم، وهي تشيل بلاط أحلامها، فإن للمدينة ضاحيتها الذاهبة إلى غاية الأوراس...

●●●

حثّ سعيد خطاه. لم يكن يريد تفويت فرصة ملاقاة أخيه الذي يمر "بالدار" مرورا عابرا. فعلا، مذ زواجه الذي يرجع إلى خمسة اعوام خلت، كان بوزيد يأتي إلى بيت أمه –وأضحى ذلك طقسا– يشرب قهوة ويتحدث إلى جارات قديمات. لم يكن بوزيد سعيدا إلا في مطبخ أمّه. النساء المسنّات تعرفن أمورا كثيرة، هو يحسن الإصغاء. يتقن الفهم. يتعلّم كثيرا. النسوة المسنّات هاته يسميهنّ فولكلوره. أمام المدرسة التحضيرية للضاحية توقفت حافلة شرطة. تصرّف طريف، حافلة شرطة أمام مدرسة تحضيرية. كان يجب أن نتوقع عربة مليئة باللعب السحرية، ترويكا خرافية معبأة بالكراميله. والخلاصة أنها حافلة شرطة.

التقى سعيد بالسيدة لوبوا وقال لها صباح الخير عندما كان ماراً. السيدة لوبوا، ممرضة وجارة كلّ يوم ما ردّت عليه. كانت مستعجلة، كانت دوما عجلانة في وقت الالتحاق بالعمل. وتصور سعيد بأنها لم تره، وذاك أمر ممكن جدا. وكان السيد روجان، أحد متقاعدي البريد والمواصلات ينزّه كلبته أمام فيلته. وكانت زوجته مريضة بداء السرطان منذ مدة. وظل السيد روجان يجيب كالمحرج من أسئلة سعيد الذي سأله عن أحواله. فعلا، لم يكن هناك سوى رتل من السيارات المصفحة لتعيدك إلى السياق. كان السيد روجان دبّا دائما. دبّ طيب، ولكنه دبّ. غير أنّه منذ بداية الحرب، تغيرت أشياء كثيرة. وفكرّ سعيد برهة في أحد مقالات كامو التي قراها حديثا: "آن الأوان ليلتحق كل واحد بطائفته."

والحال أن المتفق عليه دائما أن الأغبياء يتذكرون خطأ بأنهم ينتمون إلى شيء ما. السيد روجان لا ينتمي إلى شيء. لا يفعل أي شيء آخر سوى الحضور لتبول كلبته مرتين في اليوم. لم يقلق سعيد فوق الحد. شجرة تين الأهل تنزّه أوراقها الفيلية المراهقة في الحديقة الصغيرة التي تحيط بالفيلا. دفع الحاجز المشبّك الذي صرّ كالعادة. تجنب قرع الناقوس، وكالعادة دق مرتين رنّتا في صدره أيضا.

مليكة هي التي قدمت لفتح الباب.

●●●

مليكة هي ابنة مساعد في الصيدلية شارك في حرب 1914 رفقة أب سعيد. كانت تأتي أحيانا لمرافقة أم هذا الأخير. وخاصة بعد زواج ليلى، أخت المهندس. لم تبتسم مليكة يومها. كانت عيناها الكبيرتان السوداوان حادتين. آه! عندما تتكلم العيون أقل من نظرة... لم يكن لسعيد متسع من الوقت ليسأل، انفتح باب المكتب ودنا منه السيد بلحاسن، أبوه. اختفت مليكة خفية.

شرح السيد بلحاسن من دون أية فاتحة:

– في الثالثة صباحا جاءوا للبحث عن أخيك. مرّوا على بيته ثم جاءوا إلى هنا، ولكنهم لم يعثروا على شيء...

تنفس سعيد. ثمة رابطة أكثر من الأخوة تجمعه بأخيه: كان بوزيد، الذي يكبره بست سنوات بمثابة وعيه. والحال أنه سماه كذلك...

– ... طرقوا الباب في الثالثة صباحا... كانوا خمسة عشرة مسلحا... ارتديت ملابسي... أمك، أنت تعرف بأنها مصابة بالقلب... سألوني عن مكان تواجده، قاموا، سألوا، فعلوا، قالوا...

ضمير نكرة؟ ضمير شخصي؟... هم، ناس، أولئك، رغم ذلك فإن لهم أسماء هؤلاء البشر الذين ليس لهم حسن المجاملات. لاحظ سعيد بان أباه لم يعد يحمل وسام الشرف.

هناك من يدق على باب المكتب، فتح سعيد. إنها زليخة. عامان ونصف تقريبا. وعينان سوداوان. عينان سوداوان وكفى. أميرة صغيرة طولها خمسة وسبعون سنتيمترا.

– سلفتك والصغيرة ستقيمان هنا من اليوم فصاعدا. هذا أحسن لهما.

جثا سعيد أمام سلفته التي أخرجت باعتذار، من جيب مئزرها الصغير محارة، نواة تمر، كارميلة، خمسة فرنكات ووريدة وسام شرف جدّها.

●●●

كيف انتشر الخبر بسرعة؟ لن يعلم أحد أبدا. كانت كلّ الجارات القديمات في المطبخ. كان سعيد ينتظر دموعا، نحيبا. لم يحصل شيء. كان في عيون النسوة شيء من التكبر المبهم،

المشرّف، والهازئ. ما خديجة، الثرثارة المفضلة لدى بوزيد، هي التي قامت بدور الناطق الرسمي للجميع. قالت بصوتها المنكسر الوقور بعد أن سوّت وشاحها المعقود حول شعرها المصبوغ بالحناء:

- جاءوا وعادوا بأيديهم مليئة بالريح.

وأضافت متوجهة بكلامها خصيصا لأم سعيد:

- لم يعد ابنك ولدا والله معه.

يفهم من خلال الإقرار العام للنسوة المسنّات بأنه من السهل أن نستنتج بأنّ الجزائر آهلة بعشرة ملايين إله. ورغم الضغط العصبي، ورغم عيني أمه المحاطتين بزرقة، لم يستطع سعيد منع نفسه من التبسم. قبل قليل سلاه التلاميذ، طمأنوه. والآن سلتّه النسوة وطمأننه أكثر. تاريخ صبر طويل يقرأ في أوردتهن المدماة، في أصواتهن النائحة التي لا تشتكي أبدا. قالت ما خديجة بعد أن وضعت فنجان القهوة جانبا.

- لا تستطيع الذئاب أن تفعل شيئا أمام النسور.

قرب الطباخة، كانت زليخة، تلك السعادة الصغيرة التي طولها خمسة وسبعون سنتيمترا تلعب قدّام خديجة التي لها من العمر خمسة وسبعون عاما على الأقل، كانت تلهو مترنّمة وهي تدخل في أذنها الصغيرة وريدة الوسام الشرفي.

سقط الليل بسرعة. رافق سعيد مليكة بطلب من أبيه. مليكة تقطن مقابل الدار العليا للمعلمّات، في إحدى هذه الفيلات الحديثة التي تنصب طرازها المبتذل وواجهاتها المتصنعة النظافة تحت صنوبر جبل لا همّ له سوى المحافظة على النوم الخالد للمقبرة اليهودية. مقبرة مهملة أضحت أضرحتها المزرورقة في أيام الشباب مقاعد للمحبين وطاولات للمتنزهين. عندما كان سعيد

يدرس في الثانوية، كان يقطع المقبرة للوصول إلى بيته ويخبئ علبة سجائره تحت شاهدة قبر. الزمان، الزمان القديم العذب، مات زمان التسكع بدل الذهاب إلى المدرسة. ولكن زمان التنزه عوض الذهاب إلى المدرسة لا يمكن أن ندفنه كليّة.

كان سعيد مستعجلا للقاء أمّه حتى يعرف السبب الذي جعل المثلث الأبيض الموضوع على وجه مليكه مبلّلا. لقد بكت مليكة.

جنود مخوّذون، رشاشات.

فحص البطاقة الشخصية.

●●●

سهر سعيد إلى ساعة متأخرة رفقة أمه وسلفته فضيلة. لم يصدّق. لا هذه ولا تلك تأثرت بأحداث البارح. صحيح أن هناك كلاما عن بوزيد، ولكن من دون ترجيفات صوتية رومانسية، فقط من أجل التحسر على غيابه وكأن عائقا بسيطا منعه من التواجد هاهنا، وكان سعيد أكثر الثلاثة اضطرابا.

– أين كان بوزيد ؟

بوزيد في طائرة نائية، بوزيد في الشائعة اللامتناهية الميمّمة صوب الجنوب، شطر الشمال، نحو الجهات قاطبة. بوزيد في ضربة مكبح، في مشمشة ذابلة تسقط في الحديقة بصوت كتوم. بوزيد في الديك يخطئ التوقيت كل مساء، وفي كل مساء يعلن عن فجر سابق لأوانه. فعلا، كان هذا الديك يعيش مقلوبا. في كل مساء، وبشكل عنيد، يعلن كمبشّر حقيقي عن قدوم الصباح. في ما مضى كان سعيد يمزح مع أمه قائلا: "يجب أخذه إلى الساعاتي، ديكك هذا".

ومنذ أول نوفمبر 1954 ، ظل بوزيد يردّد:

هذا الديك ليس غبيًا كما نزعم. ليس هو الذي يتقدم، نحن الذين نتأخر..

●●●

إنه يشبه ذاك الجالس بلا حركة، وباحتشام شديد يتكئ على أريكة الجوقة في الوقت الذي يصفِّق فيه الجميع، يضربون الأرض بالأرجل، يستحسنون، وبشكل ما، يتأكد استمرار العرض. سعيد، العينان جاحظتان، ينتظر. يفهم ويبقى مسمّرا. كان لقاؤه بعلي أول احتكاك بالبركان، لم يستهجن. ولكنه لم يصفق.

كان يسمع في الغرفة المجاورة شخير أبيه. فتح النافذة قليلا.

المدينة تطفو بين لامتناهيين. دخلت نسمة رطبة. في الطبقة السفلى كانت زليخة تتباكى. جمل تأتي لتموت ثم تنتعش على تقاطع الآجر الأحمر: لقد ذهبوا وأيديهم مملوءة بالريح... رأى سعيد الابتسامة الجهورية القنوعة للعجوز خديجة، رأى الصبية تلعب بوريدة وسام الشرف. رأى مليكة تنظر إليه دائما بعينين دامعتين، ولأنها لا تجد ما تقوله له، تبتسم بلطف دائما لكأنها تعتذر عن عدم معرفة وسيلة أبلغ لمخاطبته. مليكة لتي اعترفت له يوما قائلة:

– أحببتك مذ كنت صغيرة.

رأى بوزيد بشعره الأشعث، بشفتيه المليئتين بالمفارقات والابتسامات، بوزيد صاحب الكتفين البطيئتين والعينين الدائرتين الشبيهتين بتلك العينين اللتين تتأملان الحقيقة وتنتقدانها ولكنهما تختارانها. رأى بوزيد وطريقته في وشوك غلق فمه ليقول:

– يحيا العرب !...

بوزيد الذي يردف باستمرار: "في نهاية الأمر، يحيا العرب..."

إنه لمدهش ما نحمله عندما يذهب النعاس لينام وحيدا.

شريف، صهر سعيد، رئيس المصلحة المشرف على الضرائب المباشرة. الرجل المتزن، حليق الذقن للتو، كان منطويا في هذه الظهيرة. وكان وجهه المدور ذو العينين الغائرتين جدا تحت جبهة عريضة لامعة يبدو كوجه تلميذ أهانه المدرس بشكل مرعب أمام زملائه. أكل قليلا وما تحدث أكثر. لم تسأله زوجته ليلى، ابتلعتها أفكارها هي الأخرى. عندما عاد من السوق، زارها أبوها وأخبرها باختفاء بوزيد. غير أنه لم يعلمها بالرسالة التي سلمها له ساعي البريد في آخر الصباح.

قصت على شريف زيارة السيد بلحسان ولم يستطع الزوج سوى معاودة:

– كان ذلك منتظرا، كان ذلك منتظرا! لن نعيش في سلام أبدا.

عن أي وئام يتحدث هذا الشريف الكريم؟ عن ثلاثات الصباح وثلاثات المساء في المكتب حيث المستخدمون المأمورون يعرفون برضى أنه يملك قاربين. وبأنه يتكلم بغير نبرة وبأنه "يخرج" زوجته؟ عن أي سلام يتحدث، وأي سلام نتأسف عليه، عندما نعلم بأنه في صبيحة مثلوجة لم يلتحق صهره بعمله وبأن رجال الشرطة داهموا بيته؟ عن أي سلام يمكنه أن يتحدث هذا الشريف الطيب، الرجل السعيد، الرجل الوصولي، "العربي ليس كالآخرين"، الذي جرح في كاسينو، ميدالية عسكرية، مالك "حراقة" متوهجة وزوج امرأة حكيمة، جميلة وابنة حلال. لا شيء يعكر؟ وما الذي ينتظر أن يحزن عليه، الشريف الطيب؟ انتهى،

فاتح الشهية بعد الظهر مع الأصدقاء في الحانة السخية ومقبلاتها[11].

انتهت فرحة التدخين وعرض المظهر الجانبي والتفتيش عن مفتاح السيارة بحثا عن إعجاب النوافذ المجاورة. ثم لأيّ شيء تصلح السيارة الآن؟ لم تعد الطرق تقود إلى نهايات الأسبوع. بالنسبة إليه، لقد تحطم صرح من الأحلام. ومع ذلك لا يوجد شيء فردوسي عند تناول فاتح الشهية، عند تدخين سيجارة، عند رؤية فيلم يوم السبت مساء. لا يوجد شيء فردوسي عندما نعثر على كاتبة ليست شنيعة إطلاقا، عندما نقضي العطل في "هوث صافوا" دون أن نتقاسم الجحيم مع شعب كامل. ولكن شريف، البربري الأصيل الذي لا يعرف أبوه وأب أبيه سوى وادي الصومام. ولكن شريف الذي نال الشهادة الابتدائية "للأهالي"، الذي جنّد بالقرعة، الذي أدى الخدمة العسكرية كضابط " أهلي" أثناء الحرب بعد تربص في المدرسة العسكرية بشرشال، ولكن شريف "الأهلي" الذي يسمونه في الثانوية "ميمي". حاولوا أن تعرفوا لماذا، .... شريف، البربري الصغير الذي ركض تحت شجر الزيتون والتين القبائلي، أصبح شريف فرنسيا متوسطا. لقد زعم أن القبائل لا يشبهون العرب. لقد زعم أن الحشيش سينبت في ساحة الحكومة بمجرد أن تنال الجزائر استقلالها. لقد قال مع كل الناس الطيبين الذين لم تقهم قبعة الأب بيجو من لفحة الشمس الاستعمارية: "ينقصنا تقنيّون!"

ظنّ أنه مستعد لكل شيء. لم يكن رجلا شريرا. كان لا معنى ومفارقة ومغالطة في الوقت ذاته. الغرقى تجاوزتهم العناصر. وفي يوم ما سيدق التاريخ على باب الشريفين، لأنها ستدق بشكل قوي نوعا. سيتحدث الشريفون عن الضوضاء.

في حين لم يكن ذلك سوى موسيقى.

كم من مرة عاود بوزيد لصهره :

– إنه لمن العيب ألا تضبط أمورك.

ولكن، في عالم مهتزّ، كل واحد يعتقد بأنه يتقن الرقص.

طبعا كانت وجبة حزينة، صبت ليلى القهوة وارتدت ملابسها للخروج. كانت ذاهبة لزيارة أمّها. وافق شريف واسترسل فورا:

– إنه لأمر محزن، قبل لحظات طلب مني طفل لا يتجاوز الثامنة عشرة أن أطفئ السيجارة التي أشعلت في الحين.. كان مهذبا جدا، كان مهذبا، هذا صحيح، ولكن ذلك محزن أيضا...

لم تجب ليلى وأخذت عطلتها. بقيّ شريف وحيدا، ولكنه لم يخبر زوجته بكل أسباب تعاساته. أشعل سيجارة. أوف! هنا يكمن أن ندخنّ على الأقل.

صحيح، بالنسبة إليه كذلك، كانت الصبيحة مهمة جدا.

●●●

في التاسعة، لحظة فتح المكاتب، مرّ شريف كعادته من أجل محادثة ودية قصيرة مع رئيسه الإداري وصديقه السيد رولان. دخل في الوقت الذي صرح فيه هذا الأخير قائلا:

– قبل أن تُمس شعرة مني سأقتل ثلاثة أو أربعة.

– يجب الاعتراف بأن ثلاثة عرب أو أربعة من أجل شعرة واحدة أمر مبالغ فيه. لم يكن للاستعمار في يوم من الأيام حسّ النسبيّة.

صباحات الخير التي ترد على صباحات خير شريف كانت باردة كالثّلج الذي عاود السقوط. ولكنها لم تتسم بأناقة السلم. أشعل شريف سيجارة، ولاحظ السيد رولان بلا مبالاة كاذبة:

– ألم تخش أن يقطعوا لك أذنا؟

والحال أن هذه التعليقات لا تعبق مزاحا أو اهتماما.

لم يجب شريف، لم يعرف كيف يرد. كان التاريخ هو الذي يدق على بابه. التاريخ متنكر في زي السيد رولان. سيد رولان الذي تناول معه كثيرا مشروبات فاتحة الشهية، سيد رولان الذي يحب الكسكسي الذي تحضّره ليلى، سيد رولان صغير جدا، خبيث كله، جالس بوقار على ترسانة القوانين الاستعجالية. سيد رولان صغير جدا، خبيث كله ذاك الذي ظل منذ أمس يعتز بكونه أول ميليشي في حيّه. سيد رولان صغير جدا، خبيث كله، ماسوني وعضو في نقابة العمال الدولية. زميل قديم، صديق قديم، "أخ" قديم، آه! أين المنصفون القدامى ... فرنسي جيد قديما، فرنسي قديم ليس كالآخرين، أب قديم كان ينوي أن تتعلم ابنته نيكول العربية كلغة أولى في الثانوية، أحد "الأقدام السوداء" القدامى الذين كانوا يسخرون من "الافرنج"، أحد القدامى الذين "أنا أتفاهم جيدا مع العرب"، رجل طيب جدا قديما، يدفع أجر المرأة الخادمة أحسن من جيرانه، الذي يدس لها ملابسه القديمة لتعطيها لزوجها... أحد قدامى أنا جزائري.

صورة المرائين الأبديين!

وشريف لم يكن مستعدا لهذا الموعد الصباحي مع التاريخ المتنكر في زي السيد رولان.

وشريف لم يجد ما يقوله عندما سمع قبل الظهيرة بقليل:

– اليوم، لا ندري أي خصم نواجه.

ولكن، إذا كان التاريخ في هذا الصباح قد تنكر في زي السيد رولان، فالسيد رولان ارتدى ملابسه الحقيقية، في ساعة "حالة الطوارئ" كفّ عن الاحتيال.

لن تنتهيّ هذه الفترة لأن سعيد له ذاكرة.

الثلج يسقط، يثلج أيضا. الساعة الواحدة، الواحدة فقط. لوسيا بهيّة جدا في فستانها اليويدي الكبير. ستذهب لوسيا غدا. غدا ستغادر الجزائر. ولكن بانتظار الغد هناك ساعات ودقائق، ثمة ثواني وبعدها الخلود كله الذي نسرقه من اللانهاية. تعرفون جيدا كل هذه القرون، كل هذه الآلاف المؤلفة من الألفيات عندما نقول: عجبا! سيأتي النهار غدا. هذه الآلاف المؤلفة من الألفيات التي نخادع. الشمس مهووسة قديمة. باختلافات يسيرة، تشرق دوما في الساعة نفسها. غير أن القمر لا يهمه الأمر. من خلال إحدى هذه الاتفاقيات المضمرة للتدابير المنزلية المقرفة، قرّرت الشمس والقمر الاحتفال نهائيا كعازبين، الأولى تحتفل بأعراسها الذهبية، والثاني يحتفل بأعراسه الفضية. كل واحد في غرفته. على أية حال لن تنتهي هذه اللحظة أبدا لأن لوسيا ستذهب غدا.

إلى غاية الغد، يا إلهي! إلى غاية الغد ... ليس هناك سوى التعساء الذين يعرفون كيف يقتنعون بقسط هزيل كهذا. كيف يتفاءلون إلى هذا الحد.

لم يعد للوقت حدود.

قف!

لقد تخثّر الوقت.

ما ليس له قيمة سوى في خلوده سيحتوى في الدائرة الصغيرة

التي ستصفها عقارب ساعة برباطة جأش.

وسعيد ولوسيا باقّيان كالشجر.

من الآن إلى الغد سنرى. ولكن، وبشكل عام، فإن العمى يبتدئ بعد غد.

لوسيا بهية جدا في فستانها التّويدي الكبير.

الثلج يسقط، يثلج أيضا. ستذهب لوسيا غدا. لن يسقط الثلج غدا.

لا يجب تبذير أي شيء. المحبون أشحة. ثانية وثانية، لا تساوي ثانيتين، تساوي قبلتين، ولكن، يجب استعطاف الثلج لئلا يتوقف عن السقوط. يجب تقبيل لوسيا.

المدخنة لها شفتان حمراوان. ثانية وثانية تساوي ألف سنة من الذكريات.

لن يكون هناك ثلج أبيض غدا، لن تكون لوسيا هنا. ولكن، إلى غاية الآن لم ينته أي شيء، كل شيء سيبتدئ.

ما دامت نار المداخن ستتحدث في يوم ثلجي عن الغابات الغريبة الهادئة، مادام أن طائر الدّوري سيأتي إلى الشرفة لينقر فتات الخبز المنتفخ، مادام التلاميذ لن ينظروا إلى اللوحات السود ليتمنوا من كل أعماقهم أن "يسقط الثلج" بعد خروجهم أيضا، ما دام هناك باب مغلق يظل حارسا لهامة بريدة، سيبقى دائما، في زاوية من الكون، ذئب يخاف من بندقية واقية، مدخنة تدخن، وخاصة صمت الأغاني الأساسية. سيجد المرء نفسه أمام الطبيعة رفيقته القديمة. وبرغم اللوسيات والطائرات المروحية، فان الشتاء، الشتاء وحده يملك فضيلة الأغاني الأولى.

طبعا، هناك الشحاذ الذي يتخبط في وحل شارع العرب مناديا

الناس، وهذا الشحاذ مقرور. إنه بائس جدا بحيث لم يكتئب. إن الشتاء هبة من الله. البرد ليس إلا صنعة الإنسان. وهذا الشحاذ الذي ينزّه "يا مؤمنين"(12) سيكون أول من يجد الثلج جميلا لو كان دافئا في طقس بارد. الاحتقانات الرئوية ليست مسألة درجة الحرارة، إنها مسألة معطف. إذا خلق الله الخرفان ينسج الناس الصوف. لا يوجد شيء غيبي في الألم البشري.

فكّر سعيد بصوت عال، واستفزّته لوسيا معلقة:

– الوقت هو الذي جعلك فيلسوفا.

– لا، أجابها، بل الكحول.

سعيد لا يحتمل الكحول ولا يحب الشرب. لا يوجد أمر بدهي كالكآبة. في كلّ الأفلام، في كل الروايات، في كل الأغنيات الثملة، يشرب "أحد السعيدين" عندما تهجره لوسيا. للنسيان، لنسيان ماذا؟ لم تهب الكحول أحد السعدين فقدان الذاكرة أبدا. لامتلاك الشجاعة؟ كأس الروم التي تمنح للمحكوم عليه بالموت هل تزوّده بطمأنينة أكثر ليصعد إلى منصة الإعدام؟ وإذا كان المحكوم عليه لا يشرب إلا الحليب ... ربعيّة ماء الحياة قبل الصعود إلى الغارة من أجل ضربة سوط؟ ولكن الجنود ليسوا أحصنة؟ إذن، لماذا؟ لكتابة طرفة رائعة وتوقيع "أوتريو"(13) ؟ للحديث عن الخريف وحمل إسم فيرلين؟(14) أو ليتمكن سعدي(15) من الغناء عن العذارى تحت ظل أشجار الكرز؟

لا!

خطأ.

إذن لماذا؟

العادة هي القوة المكتسبة. ولكن في البداية، ولكن في المرة الأولى، لماذا نشرب؟

ولكن في البداية، ولكن في المرة الأولى، هناك الأفق الذي يمكن بلوغه، الذي يمكن القبض عليه، الذي لا يمكن امتلاكه بالأيدي أكثر منه بالأعين. هناك الطائر الأزرق، هناك الغزالة، هناك السراب. الطائر الأزرق الذي يحلق، الغزالة التي تهرب، السراب الذي يزدريك. ولكن في البداية، ولكن في المرة الأولى، هناك عربة في هذا القطار الذي يسير بسرعة فائقة، وفي هذه العربة توجد ابتسامة تبتسم لك. وإنك على أرصفة المحطة الصغيرة، محطة الهمّ الصغيرة، محطة الموت الصغيرة. إحدى هذه المحطات الصغيرة حيث لا تتوقف القطارات أبدا. مع أنك رأيت تلك الابتسامة التي ابتسمت لك. في ظرف ثانية، ولكنك رأيتها. إنك متأكد. إذن ستجري، ستجري كالمجنون خلف القطار في ماراطون ميؤوس منه. ولكن القطار يجري بسرعة فائقة. ولكن قواك تنهار. حينها ستتوقف على حوافي السكة وتجلس قرب أول ساقية، بعد أن يكون لك وقت محدود لرؤية الابتسامة التي تبتسم لك قبل أن تختفي القاطرة في النفق. تسأل رئيس المحطة. سيخبرك رئيس المحطة بأن هذا القطار لا يمرّ على هذه السكة سوى مرة واحدة خلال الحيوات كلها. ولأنك جريت، ولأنك عطشان، ستغمس شفتيك في أول ساقية.

تشرب.

تشرب، هذا ما تفعله بالضبط.

– قالت لوسيا: غدا لا أريد أن ترافقني إلى المحطة...

كانت جالسة على أرض الغرفة رأسا، قريبا من الموقد. تمدّد سعيد بكل قامته ورأسه مسند على رجلي لوسيا. لم يكن يبصر إلا أسفل المعطف، جرف صغير مثلث ترقص عليه ظلال الألق والهوام.

مرّ قرن.

كان صدر لوسيا الصغير يدق ببطء. والنار تصنع أبياتا. نبض سعيد يُعدّها. سبيخة ثلج، سبيختان من الثلج وملايير الغراميات. كل يوم، كل دقيقة، كل ثانية. حب، حبان، ثلاثة، حب واحد. ممنوع التدخين. اربطوا أحزمتكم ...

– أهي بعيدة كليرمونفيرون؟

ما هو بسؤال وما هي بإجابة. غير أن النبرة كانت شاحبة. النار تزقزق. حب، كل يوم، سبيخة، سبيختان. كانت عينا لوسيا بلون الكآبة. عينا سعيد تتجولان في جمر المدفئة. عينا لوسيا في الأعلى، عينا سعيد في الأسفل، لأن الحلم في الأعلى بالنسبة لعيني سعيد، لأن السماء في الأسفل بالنسبة لبشر سلالته. عينا لوسيا، عينا سعيد، والحب يترامى من لا منتهى إلى آخر.

الجرف الصغير المثلث يرتعد خفية.

– أهي بعيدة كلير مونفيرون؟

حبي ناء هناك دائما، بعيدا جدا دائما، أيناك؟ ماذا تفعلين؟ صدرك ينادي بهدوء. ماذا ستفعلين ؟ المدينة قاتمة. خلف المحافظة، أتذهبين لرؤية السوق؟ هناك الطرقات تتزاحم كما في قسنطينة. كل شيء قديم وكل شيء يحيا، هناك حبي بعيد دائما، بعيد جدا دائما. أيناك يا حبي، ماذا تفعل؟ صدرك بعيد دائما، بعيد جدا دائما. أيناك يا حبي، ماذا تفعل؟ صدرك ينادي بهدوء، ماذا ستفعلين في سوق أوفيرن(16).

ويد سعيد تكلّم يد لوسيا. ويد لوسيا تحدّث يد سعيد. وفم سعيد يدرك الجرف الصغير المثلث. وفم لوسيا يقبّل فم سعيد. والسماء في الأسفل والسماء في الأعلى.

في كل أسواق العالم تباع الزهور والعصافير.

●●●

ولوسيا جميلة من دون فستانها التّويدي.

مرّ قرن.

انقلبت بفعل القبلات الكأس الخزفية الموضوعة على الإسكملة الخفيفة قرب المدفئة.

كانت هناك يوسفيتان على الأرضية الخشبية.

كانت هناك أربع أغنيات.

في كل أسواق العالم هناك زهور وفواكه وطيور.

قالت الجرائد:

.. " استطاع الإرهابيون الفرار مخلّفين قتيلين على البلاط. من جانب قوات الأمن لا توجد أية ضحية. لسوء الحظ، وأثناء الاشتباك، أصابت رصاصة طائشة امرأة فتية نقلت إلى عيادة بالمدينة في حالة خطيرة، أين أجريت لها عملية جراحية سريعة. الضحية كانت بصدد الاستعداد للسفر غدا إلى البلد الأصلي ..."

قالت الجرائد ...

لو أنها لم تنم، كان بمقدور لوسيا أن تبصر من خلل التربيعات الزجاجية الواسعة للنوافذ، في أسفل الأسفل، تحت العقد الأساسي للجسر الحجري الكبير، مسجد بسيدي راشد يصوّب نحو السماء المختلة الهندام صومعته الشبيهة بإنسان صغير طائش. كانت الغرفة حارة، حارة جدا وصمت عميق يحيط بالعيادة.

من أعالي جبل الوحش المغطاة بثلج رمادي ابتدأ السحاب ينزل للإغارة على المدينة. وكانت الريح تعصف منذ الصباح.

سمحت لروبير وظيفته كطبيب أن يتجه قرب سرير لوسيا بمجرد انتهاء العملية. في أول عشية، بعد أن فارقت سعيد، ذهبت لوسيا إلى حانة اختارتها مع روبير ليودع كل منهما الآخر. افترقا في حدود السادسة ونصف مساء. كان روبير مضطربا. كانت لوسيا سعيدة. إحدى اللوسيات السعيدات كالثلج، التي تضغط في جيب معطفها على حبة يوسفي صغيرة كفأل خير. لم يقطع روبير خمسمئة متر عندما انهارت لوسيا على الثلج الوسخ وتدحرجت حبة اليوسفي الصغيرة على الرصيف.

– حتى الفواكه لها ذاكرة.

●●●

– اطلبوا لي سعيد ... يجب أن تطلبوا لي سعيد ... لماذا لم تطلبوا لي سعيد؟

هذه هي الكلمات الوحيدة التي كان يسمعها الجراحون والممرضات كلّما خرجت لوسيا من خدرها. وقدّر روبير أبعاد الحب الذي لم يهد له. كان هنا، صادقا، مثقلا بالهمّ، عاجزا وغير صالح. لكن اللحظة خطيرة كي يتسنى له التفكير في نفسه. غادر الغرفة بخفي حنين ونزل إلى الطابق الأول ليتحدث مع الجراح الذي أجرى العملية للوسيا. كان الطبيب موجزا وصارما. "لن تنجوَ"

شكك روبير في حقيقة الأمر، ولكن حلما واحدا، رغبة واحدة، ليس فيهما أيّ روح علمية.

طلب الجرّاح بغتة:

– من هذا سعيد الذي تطلبه بدون توقف؟

مكثت الإجابة قرونا لتتشكل وتأتي:

– صديق من عامة الناس، صديق من عامة الناس تحبه كثيرا.

لاحظ روبير للتوّ صيغة الاستمرار التي وظّفها.

أغدت لوسيا الآن حياة تامة؟ طلب من الجراح عما إذا كان بمقدور سعيد المجيء لزيارتها.

– لماذا، ليس الآن؟

كانت حركة الجراح متحررة. هذه الاريحية، هذا التسامح، هذا التساهل لا ينبئ بخير إطلاقا.

بحث روبير عن سعيد. الريح التي تجعلك أصما.

●●●

ولكن الريح كلها تقول: ستموتين، أيتها الحكاية الصغيرة. ستموتين في الثلج الوسخ. وغدا سيكون الثلج أبيض. وغدا تصبح

اليمامة طائرا. غدا ستغني حبات اليوسفي في الحدائق السعيدة. غدا، أيتها الحكاية الصغيرة سترقص الأغاني رقصة الفالس. سيكون للمدينة ذات القلب الحجري محبّوها. غدا، أيتها الحكاية الصغيرة، يا أيتها اللامعنى الصغير، الوجود المفارق لوردة سوداء على ثلج أبيض، غدا، غدا، تقول الريح التي لا تؤمن بالله...

والعابرون الذين يمضون، والعصر الذي يمضي، والغيوم التي تمضي، والمنازل التي تنظر إلى العابرين يمضون وعيون الشحاذ الهامدة على جسر القنطرة، والسيارات الذاهبة إلى أية جهة، والكون، الحجر الصغير المرمي في المقبرة المعصومة من آليتها، وكل ما يعيش في الخارج، ما يعيش إجمالا، ما يعيش كيفما كان: ريح، لا شيء سوى الريح.

الكون الذي كل شيء لديه سواء.

قرع روبير باب سعيد.

لا أحد.

الريح في أسفل العمارة دائما.

الريح كلها تقول: ستموتين يا حكاية صغيرة، ستموتين من دون إكليل الجبل، ستموتين ...

فكر روبير في إمكانية تواجد سعيد عند أهله. ركب سيارة انطلقت بسرعة. كانت العجلات تتحدّث كالريح.

●●●

سباق مع الريح

●●●

لا يوجد حظر تجوّل الهوام، لا يوجد تصريح أمان لهذا السفر...

لقد ذهبت الحكاية الصغيرة، ولّت إلى بلدان الثلوج وشجر الزيتون.

سعيد لا يفهم الموت.

نظر إلى لوسيا ...

لم أرغب في البكاء. لست شقيا لأني مندهش. لا بد أنها كانت تمثيلية هزلية. يدك تشبه يدك، فمك هادئ، كأنه يسمعني.

لا بد أنها هرجة.

وقف روبير بمحاذاة الباب، وسعيد على حافة السرير، استعداد ساذج ومهيب.

الموت ليّن كحبة يوسفي.

كنت الوردة، الفاكهة وغدوت خرافة.

ماتت لوسيا، هل تسمع يا سعيد، لقد ماتت لوسيا.

ولكن سعيد لا يسمع، ولكن سعيد لا يصغي.

ماتت لوسيا ويداها اللتان كانتا تمشطان شعرك. ماتت ويداها اللتان ترسمان النهار.

سعيد مغرم، إذن فهو مرتاب.

ولكنني أنا الاله! يا صغيري المسكين. لسيت ربًا.

لقد فقدت إذن مفتاح القطار الآلي الصغير؟ هل نسيتُ ملء قلمي؟ ضيّعتُ علبة الكبريت؟

لست ربّا.

أرفع نابض القطار الآلي الصغير. سيذهب القطار من دون لوسيا. املأ قلمك، سيكتب: هنا ترتاح. اعثر على كبريتك، سيكون

الضوء يتيما وترقص ناران ماجنتان في ذاكرتك.

على أنها بتقبيلك، بعضّ يدك، بقولها لك: اسرع، سنتأخر ...

على أن، لا توجد على أن!

ماتت لوسيا.

للتاريخ غلطاته. لوسيا اللازمة الصغيرة، الريح تعرف ذلك جيدا ...

مع ذلك وجب أن نعيش، أن نجلس في زاوية النار عندما يكون الحطب غائبا. ثم نسكت. لن يقتلنا حزن الحب، نجعله يعيش. ماتت لوسيا، ولكن اثنين زائد اثنين تساوي أربعة دائما.

في هذه الصبيحة، وفي حدود العاشرة، ذهب سعيد إلى عائلته. كان هناك حمّال[17] في نهج فورسيولي يحمل بمشقة كيس قمح مشدود إلى جبهته بحبلين ينشران "شاشه"[18] الرّث. كان الكيس أكبر من الحمّال. ومن حين إلى حين يرسل الرجل صراخا لا علاقة له بكل ما هو إنساني. أيفعل ذلك لاسترجاع أنفاسه؟ أكان ذلك غضبا؟ إنه خليط من الحشرجة والزمجرة. قدّم اللعين شكوى في صبيحة نّيرة إلى محكمة من دون أحاسيس. جاء خلفه مُزابي سمين وفق المراد، النظرة البعيدة، الخدّان الراضيان المتدليان كخدي كلب بلدغ شبعان، والشفتان المضطربتان بفعل عرة أو دعاء. في لحظة ما، ارتعش الرجل. كان سعيد يتوقع أن ينهار في وسط الطريق. لم يحدث شيء من هذا القبيل. استعاد اللعين توازنه، واستدار ببطء ليستمتع بالمسافة التي قطعها. أرسل صراخه الفوطبيعي وأكمل مسيرته. كان الشقاء على ظهره. مفارقة مرعبة، الكيمياء الجهنمية للألفاظ، كان للقمح وزن القدر. القمح، سحر الطبيعة وبهجة الإنسان، القمح يحفر جبهة هذا المعذّب وبطنه. والشقاء على ظهره، المعذبّ يمشي كحيوان، كتعاسة سيؤول إليها. يمشي من أجل قمح قليل، قمح قليل جدا.

فكّر سعيد بأنه يشبه هذا الحمال. المرتفع ذاته. ورغم ذلك

هل يزن نصف قنطار من القمح أكثر من طن كآبة؟ لوسيا، كيس قمح، المشي دائما. المشي رغم كل شيء، وحمل كيس القمح، كيس القمح الملعون، كيس القمح المبارك، القمح الذي يولّد الصراخ اللا طبيعي للحمالين. هذا القمح-النسر، هذا القمح-السرطان، كان موسيقي في شهور مايو. لقد مشى سعيد في حقول القمح التي ترسم رقصات الفالس عندما تتذكر الريح النايات العازفة. هذا القمح الذي يصنع إجلالا لطيفا وليّنا يبعث من جديد كأمواج خفيفة.

القمح الذي يسهم في انبعاث صراخ فوطبيعي. مع أن الصباح كان مضيئا جدا. ولكن، في حقيقة الأمر، لم يكن هناك قمح ولم تكن هناك لوسيا.

سيصل الحمال إلى قمة المرتفع. وغدا سينتظره مرتفع آخر، كيس آخر من القمح أو أي كيس آخر يسحقه ألما. وغدا سيبلغ قمة المرتفع أيضا. وغدا، وكل غد سيرسل من جديد صراخه الفوطبيعي. وغدا وكل الأيام الأخرى سيغرق صراخه في السماء.

وهكذا يمكن أن نرى كذلك في أقصى الجنوب الصحراوي معاناة القوافل. يمكن رؤية حركات القوافل الآلية للجمال المنثنية تحت الحمولة. يمكن رؤية مسارها المنتظم، البطيء، الخالد. مثل نابض غريب تصعد مقاومتها إلى المنتهى. ويحدث أحيانا أن ينهار جمل، متعبا ومغلوبا. حينها يريحه الطوارق من عبئه الذي سيوزّع على الأحياء. سيتأمل المغلوب بعيني اليائس الهادئ المدّ الجحيمي للرمال والحجارة السوداء. لن تقول عيناه الألم، لا تشتكيان، لا تلومان أحدا. يمكن أن نقرأ فيهما الدهشة الموجعة للأقدار المقبولة عادة. الموافق عليها نهائيا. الجمّال، وهو يقدّر حجم الخسارة، يمرّر يده للمرة الأخيرة على الجوانب اللاهثة الهزيلة للحيوان، ثم يلتحق لتوّه بمكانه في القافلة، دون أن يلتفت،

دون أن يلقي آخر نظرة على مرافقه في رحلاته القيامية. ثم، واحدا فواحدا تتوالى الجمال، غير مبالية، غير مضطربة أمام أخيها. هل نستطيع يوما أن نعرف الأسئلة التي يطرحها جمل لحظة الموت؟ الصحراء ليست ثرثارة. ومنذ الأزل، اختار الحمّالون سواء كانوا حمّالين أم جمالين الحكمة الجبرية للصمت. يحكى أنه في لحظة الاستسلام يطلق وريد الصحراء صراخا. هل هو صراخ مركب غريق يدفع صفارات الإنذار إلى الكلام، هل هو نداء الله والناس؟...

●●●

وغدا أو بعده، سترى القافلة بساتين النخل. ستشرب في البحيرات الصغيرة(19) أو في النهر الكبير. سيتركونها تستريح في وقت التزاوج والمرعى. ثم، في طريق العودة، أربعة أو خمسة شهور من بعد، ستشق طريقها من جديد، ستعبر من حيث قدمت دون أن يحوّلها أي حياء بدرجة واحدة لتجنّب حطام أحدها وقد قرضته الريح والشقّر.

وغدا، أو بعده، جمل آخر، قافلة أخرى...

ليست عادة السعادة هي التي تميّز سعيد عن صهره. بالنسبة لشريف، السعادة تكمن في ما نفقده. السلم، السفر إلى فرنسا كل عامين، المواقف غير الملتزمة وكثرة الكلام المتعلق بالمرق الإنساني. شعب[20] 1789 له نسب مباشر مع هذا البربري حامل البكالوريا من نوع الثانوية الأولى. لأنه ظهر في أقل من جيل في الجزائر نوع من البشر غير معروف في أي مكان: الثانويات الأولى. في هذه الباخرة الرديئة من الألم، المرتجة بفعل عواصف التاريخ، ثمة الدرجات الأولى والدرجات الثانية. كان شريف طيبا مثل خطاب 14 جويلية لجمهوري ما قبل الحرب. لم يتردد إطلاقا في الاعتقاد بأن البشر كلهم اخوة، لو أن كل بشر العالم تعاونوا، إلخ ...إلخ. كان يتكلم بقناعة، ولكنه سيقتسم عمّا قريب هذه القناعة مع نفسه. لا نعاود أبدا بما فيه الكفاية هذا الأمر البديهي المرعب بأن الجمل تتركب من الكلمات. جمل بهية متأنقة في لباسها. جمل منشاة. جمل بأحذية ملمّعة. جمل تضع أحمر الشفاه. جمل تجعلك تقشعر. جمل تفرض عليك الوقوف مستعدا، جمل تفرض عليك كثيرا من أحسنت، جمل بثرثرة، بكلام لا معنى له.

مبدئيا فان هذه الجملة عبارة عن سيول. وجدانية صاخبة، تزبد وترغي. تتدافع. الصدى يعكس الغضب والشرف. فيض الحرية يجر الحصاة التي ينشطها إلى الصخب المجيد لحجارة التبلُيط التي يتم تكديسها للحاجز الأخير. السيل يدير الآن عجلة الطاحونة: ثم هذا ثم ذاك، ثم هذا ثم ذاك. وماذا تريدون أن تقوله

طاحونة أكثر مما قيل؟ ولكن السيل يذهب من جديد. بهياج أقل. الطحان يبيع خبزه كما يليق. من حين إلى آخر يتذكر السيل بأنه قدم من الجبال. مرهق ! أتعبه السقوط. مرة واحدة في السنة، عندما تبكي الثلوج يسترد بأسه، المتكبر الوسيم الذي يهبه الثلج دموعه. غير أنه ينسى بسرعة بأنه قدم من الجبال. هو يلهو الآن بتسلية صياد في نهاية الأسبوع. إنه يتفاوض في السهل ويخون كنوزه لأنه يمنح سلمونيته إلى صياد الأحد. لا يمكن أن نستودعه أي شيء حالا. والآن يمكن أن نضمه إلى المجازة. ثم سيتسع في يوم ما، سيتمدد، سيختبئ في المجرد ويغرق في الساقية الطيبة للأفكار العامة. إنه أوان القهوة السريعة. إنه يتبول.

●●●

لم ترغب أمّ سعيد في المشاركة في الحديث. هي تحب صهرها، ولكن، لأنها تعرفه سريع التأثر اكتفت بموافقة سعيد الذي أكد للتوّ:

– إنك مخطئ، لن تنتهي عمّا قريب .

بقي شريف مرتابا. ربما يجعلنا شك من هذا النوع نفهم ما هو لا فت للنظر في زلزال الأرض والناس الذي ابتدأ في أحد أيام نوفمبر 1954 . المكابرة في ما هو بدهي تعني تمديد الأمل، الرغبة في الاحتفاظ بالغبطة مهما كان الثمن. كل وضح له ظلاله. كان شريف ظلا. ولكنه استقر في الرفاهية المخزية للعادة. تعوّد على المقاطعات الفرنسية الثلاث. لم يعرف المعاناة أبدا. يقلقه التاريخ، يناوئه كمغامرة. ثمة دائما كلمات نتجرأ على قولها، نتجرأ على كتابتها. والحياء يصدنا. حيرة ما تغلق أفواهنا. توقف يدنا. كلمة خائن مثلا. أين تبدأ الخيانة وأين تنتهي؟ في التكافل الذي نتجنبه مع شعب في الحرب؟ في التعاون الذي نقدمه للعدو؟ أو أن الخيانة ليست أكثر مكرا، ألا تنزلق بحيلة وتلج بالنا؟ أليست نقصا

في المروءة، إعطابا واع ومقصودا، أو شكا. هذا الشك الكريه، الضعيف، اللاصق، الذي لا يكسر، كبقعة صدأ. كرفض؟ أن تخون معناه أن تشكك في حقيقة الآخرين.

ألحّ سعيد:

طبعا، لم تكن تنتظر هذا. لم تكن تنتظر أن يعاد النظر في يوم ما في القوة الخارقة للآلهة...

لم يعكس صوته لا حماسة ولا مرارة ولا إقرارا ولا تبرأ. كان يلاحظ ببساطة. ثمة جملة تحلق في ذهنه كحزمة ضوئية تبحث عن شيء تنيره: التاريخ لا قلب له. لم يجرؤ على قولها جهرا، هو المتأكد من أن شريف لا يفهمها، وسيتخذها ذريعة أخرى لنبذ الحرب.

كانت زليخة نائمة على ركبتي جدتها.

نظر سعيد إلى أمه. جميلة أكثر من أيّ وقت مضى. عيناها السوداوان الرقيقتان تتعقبان نظرة وجلة بلون زهرة البرتقال. خدّاها المحفوران بغموض ينتهيان بفم محافظ على ابتسامة خالدة. هذه الابتسامة الخفية للخجولين وذوي المروءة. جبهتها صغيرة ومستقيمة وخالية من أي تجعد. تحكي الصور بأنها كانت فاتنة، صبية، فاتنة جدا. أمّ وجدّة، كانت فاتنة، فاتنة بهذا الحضور الذي لا يفرض نفسه، ولكنه على العكس يتواجد في الصمت والتأمل. الشعر الأبيض الذي نجا من الحناء جدد شبابها أكثر. يداها فقط هما اللتان خدعتا سنها. ليس المستقبل هو الذي يمكن قراءته في يد.

– والحال أننا نتكلم كي لا نقول شيئا. سأقدّم كثيرا لأصبح في مكانه. قال سعيد وهو يشير إلى سلفته التي تلوي على سبابتها العاجية الصغيرة خصلات شعرها وهي تنام. حسب أقوال جدتها

كان بوزيد يفعل ذلك وهو صبي.

– أضحت سحنة شريف وجمة وهو يسمع اسم صهره.

– بوزيد المسكين! ...

رنّت في صدر شريف تنهيدة مثل جلجلة قادرة على إثارة شفقة قانون–ملاك بصدد إخماد الفتن.

– لماذا مسكين؟ قوّم سعيد بصوت مرتفع، ما أيقظ الصبية.

راحت زليخة تبكي. الأطفال يبكون دائما عندما نوقظهم. أمر عجيب، ونشعر باستمرار بأننا سحبناهم من بعض الأحلام التي تضع السلام على جبهتم والبسمة على فمهم النائم. تعرفون، إحدى هذه الابتسامات التي لن يهدوها إلى الرجال أكيدا...

بحث شريف عن كلماته:

– كان أخوك صادقا جدا. لم يعرف كيف يتصرف. كان يجهر بآرائه كثيرا. قلت له مرارا ...

وصلنا إليها! أصبح السّيل نبيًا. إنه يتبول من جديد. رأى سعيد أنه من المستحبين إيقاف الحديث عند هذا الحد. إنهما على طرفي نقيض. السيل يبيع السلمون والنصائح بثمن زهيد.

نسيّت زليخة ملائكتها وراحت تشرب حليبها. ولكنها كانت تحكي بين جرعة وأخرى ألف حكاية معقدة، غير منسجمة، غير مفهومة. كانت موسيقى.

وصلت فضيلة زوجة بوزيد، التي ذهبت عند أهل مليكة رفقة هذه الأخيرة. بمجرد أن أبصرت سعيد لم تتمالك نفسها من الشعور بما يشبه الغبطة المؤلمة كونه يشبه زوجها. ولكن عينيها الحسيرتي النظر لم تعكسا أي شيء. لاحظ سعيد بأن سلفته لم تعد تتجمل. أما مليكة فقد قالت له ببساطة:

– وأنت، كيف حالك؟

قالت ذلك بكلمات تجعلنا نحس بأنها متعثرة.

لم يتجرأ سعيد على النظر إلى وجهها. كان يتفادى النظر إليها قُبُلاً، حرجا، لأنها اعترفت له ذات يوم قائلة:

– أحبك مذ كنت صغيرة جدا.

●●●

لماذا تقاوم شجرة المشمش الصقيع الأخير وسط الحديقة. مسكينة هذه المسنة! عمرها ثلاثون سنة شجرة المشمش. لم يغرسها أحد، وما اعتنى بها أحد. نمت وسط الأطفال الذين يسرقون فاكهتها التي ما تزال خضراء ويحنون أغصانها ويوهنونها بتثبيت حبال الأرجوحات المرتجلة. كانت مستلقية هنا في فوضى خرابها، شبيهة بدمية خشبية مفككة المفاصل. لقد عوض حزن منظرها الميت بكونها حجبت الطبيعة أعواما وأعواما. والآن يمكن أن نكتشف من السطح ونوافذ الطابق الأول المدينة كلها إلى غاية سلاسل التلال التي تسمح بتسرب الطريق تجاه سطيف. ارتدى سعيد سروالا قديما وقميصا رياضيا، ثم، متحركا بحماسة الناس البعيدين عن المهنة، راح ينشر. كان الجهد العضلي يشغل باله، لم يكن يفكر سوى في النشر. باتجاه أقصى البستان، وفي الخم الذي بناه بوزيد، انزعج فناء الدواجن من صوت المنشار ففاض ثرثرة مثل سوق متوسطية. في الممرات ما تزال هناك الثلوج التي كدست، كان الهواء جافا ومنعشا، وفي السماء تصفر الطائرات النفاثة.

التحق شريف بسعيد. أحسّ بأن صهره أحب مكالمته فانتظر وهو ينشر. انتصب شريف مرتبكا في الحديقة وقد استبد به حياء مفاجئ كالذي يداهم الكبار عندما يريدون أن يشرحوا صدورهم

لمن هم أقل منهم سنا.

– أردت أن أقول لك ...

كان الصوت خفيضا. لم يكن سعيد يحب ما هو خفيض، ما هو إرتسامي. مسألة حياء ربما؟ في حين نحتمل بشكل مفارق وبسهولة أكبر أسرار إنسان غريب. قال شريف مقترحا:

– لنذهب إلى مغسل الثياب الجديد ...

ما نسميه "مغسل الثياب الجديد" ليس مكانا للغسيل. كان عبارة عن بيت صغير ما فتئ الأطفال يسمونه كذلك. كنا نخزّن فيه الحطب وأشياء كثيرة عديمة الجدوى وصدئة، ومع هذا نحتفظ بها: إطار دراجة قديم، عجلة منقلة، لوازم تالفة، سيارة أطفال مخربة، "كانون" مبعوج، إلخ. كانت أم سعيد تحب حفظ كل شيء، ليس لأنها تفكر في أهمية هذا السقط وفي قيمته المادية، ولكن لأن الإطار كان لأول دراجة امتلكها بوزيد، لأن الكانون القديم كان ملكا لليلى عندما كانت صغيرة ترغب في تحضير الخبز كأمها، لأن عجلة المنقلة كانت تسليّ سعيد، لأنه يوجد في كل بيت بكى وابتسم مكان شاذ وخرافي، غير ضروري ومقدّس، مكان يشبه متحفا، متحف مليء بطيبة القلب، تحافظ عليه الذاكرة وبيوت العناكب بعناية قصوى ...

–جئت إلى هنا لأدخن سجائري الأولى خفية عن أبي.

لم يجب شريف. كان يفكر كما يبدو للعيان، في أمور أخرى غير سجائره الأولى.

جلس سعيد على صندوق. في حين فضّل صهره الاتكاء على حائط فوق رف اصطفت فوقه كتب قديمة قضمتها الفئران، وثمة خوذة عسكرية إيطالية جاء بها بوزيد من ريف تونس.

في متحف عائلة بلحاسن، في وسط ألعاب الأطفال وأنقاض

المراهقة، في وسط غبار الذكريات المستودعة لأرشيف الوقت قصّ شريف حكاية طويلة:

– لم تعد أختك تكلمني ...

كانت الحكاية تتمثل في الذهاب إلى فرنسا، في رفض ليلى الذهاب إلى هناك، في الوضع الذي أصبح لا يطاق.

امتنع سعيد عن المساءلة أو المقاطعة.

– ... لا تريد المجيء معي. ليس لنا ما نفعله هنا. شرحت لها بأني أملك من النقاط في سلّم المرتبات ما يكفي للحصول على ترقية. هناك على الأقل بإمكاننا العيش في سلام ...

هناك فرنسا.

هنا موضع آخر.

استمع سعيد، نوعا ما. تقريبا. قليلا.

وبنبرة الانتحاب:

– لم تعد الحياة ممكنة ...

وكرّر:

– هذه ليست حياة. ومن جهة أخرى فأنا أحب أختك.

لم يجب سعيد. كان ينظر إلى الأشياء القديمة التي سلت صباه: عجلة المنقلة، إطار الدراجة، الخوذة العسكرية ...

– أستحي من قول هذا، ولكني أحب أختك.

ودائما اللازمة نفسها: لا، هذه ليست حياة ... طبعا!

ابتسم سعيد، له، للكانون القديم، لعجلة المنقلة، لكل الأشياء التي يشترك فيها مع أخته ومع بوزيد، كل هذه الأشياء التي يراها

شريف مجرد قمامات ورثاث. كان سعيد مسرورا بأخته التي رفضت الذهاب. في كل ذهاب هناك شيء من الهروب الذي يشبه التخلي عن الواجب، وإذ رفضت ليلى الذهاب أبدت بشكل ما ارتباطها بالعجلة القديمة للمنقلة، بالكانون القديم، بهذه الكتب القديمة. بقيّت وفية للساعات المضيئة المزروعة بالضحك والنحل. بقيّت وفيّه لهذا اليوم الخجول من نوفمبر الذي طلع ذات صباح على البلاد الجزائرية. كانت وفيّة لهذه العناكب، حارسات الحب والصمت. كانت كالآخرين. شعر سعيد بامتنان كبير يجتاحه، عزة نفس غريبة. لا توجد سوى الجرذان في حالة مغادرة الباخرة، ولكن السحب لم تطرد أبدا طاقما شابا من المركب السريع المضاء بالفجر.

وبماذا يجبب هذا الشريف؟ أي شيء مفهوم نقوله له؟ لا يوجد نغم، بالنسبة إليه لن تكون سوى ألفاظ، كل شيء مجرد ألفاظ. أقول له:

- ولكن زوجتك على حق.

- أقول له:

إنه لمن الغباء أن نموت بعيدين عن قبرنا.

أقول له:

- يا عزيزي المسكين، أنت مثل شجرة المشمش التي نبصرها من الكوّة الصغيرة لمغسل الثياب. إنك ميت. وإذا كانت الشجرة قد أصبحت حطبا لأواخر الشتاء، فأنت في طرف غابة الربيع تحكم على نفسك نهائيا بالخريف الأبدي. لقد أعطت شجرة المشمش الفواكه. جعلت الأطفال يتأرجحون. سمعت الضحكات والأغاني. والآن تقدم حطبها. ستتحدث المدفئة. وفي الشتاء القادم ستخرج شعلة الذكرى من نسغها الجاف. لقد أدّت شجرة

المشمش واجبها إلى حد ما. ولكنك أنت يا شريف، يا عزيزي شريف المسكين، يا عزيزي المسكين، ماذا نفعت، إذا كنت تطير أمام الزوابع الأولى كورقة ميتة لا تملك لا كآبتها الهشة ولا أملها في الاستمرار في التخمر؟ ستذهب إلى البلدان حيث "يحلم الناس في الأسرة". نعم، الخريف الأبدي. هذا الإطار القديم للدراجة، عجلة المنقلة هذه، هاته العناكب التي تنسج الذكرى، هذه الجرة التي تحتوي على الزيت، وسقط متاع القلب والروح هذا، لن تحدثك كل كنوز الأطفال والرجال هذه.

وماذا يستطيع سعيد أن يقوله لصهره، لأن شريف لا يفهم لغة شجر المشمش والعناكب والأطر القديمة للدرّاجات؟

كان ذلك في يوم الأحد. مقابل المقبرة، كان الملعب البلدي منتفخا بأحسنت وبتشجيعات اللاعبين. ويبدو أن الأشجار أيضا كانت تصفق على مآثر المحاربين المسالمين. ضوضاء الفرح، ضوضاء الجمهور كانت تصل إلى غاية أضرحة مقبرة ايكس أون بروفانس. كانت السماء زرقاء كلوحة لسيزان.

وجد سعيد ضريح لوسيا بسرعة. هناك حلزونات تسلقّت إلى غاية النصب التذكاري. كان هذا القبر نظيفا مثل ياقة طفل صغيرة. كان نظيفا كغسيل تصفعه الريح. بالمناسبة، لقد قامت ريح الميسترال. نظر سعيد مندهشا، غير قادر على فهم لوسيا التي ماتت هناك في عيادة بقسنطينة.

اقتلع حلزونا صغيرا واحتفظ به في يده. هذا الحلزون الصغير كان بمثابة إله يدخل كاتيدرائيته، كان بمثابة فكرة تعود إلى سرها. هذا الحلزون الصغير أكثر سموا وقداسة من جوهرة لأنه اختار قضاء الشتاء قرب لوسيا.

على بعد عشرين مترا راحت مكبّرات الصوت تنشر من الملعب النتائج والتصفيقات. الجمهور يصرخ من الغبطة والغبطة تطير نحو السماء الزرقاء. الجميع يصرخ، والجميع يصفق، والجميع يغنّي. مهرجان من الحياة. وكانت ريح الميسترال مسرورة. والسهل كان مبتهجا. وباتجاه مرتفعات ايكس أون بروفانس كانت أشجار الكستناء تصفق.

على بعد عشرين مترا فقط، لم يكن هناك سوى سعيد ولوسيا.

سعيد ولوسيا في وجه لوجه خالد من التفكير والتأمل، سعيد يشبه شجرة سرو.

إنه لأمر مدهش. ثقب الحلزون الصغير كوّته وغامر صوب الربيع. لعب. اللعاب مثل دمعة كانت لوسيا ستهديها إلى يوم الأحد هذا الأكثر زرقة من سماء سيزان الزرقاء.

ارتعدت ركبتا سعيد.

هل رأيت يا لوسيا، في بلدي سهول وسهول، سهول فسيحة كجملة بلا فاصلة، سهول من غير قرى. ثمة المسافة ذات الأبعاد الشاسعة التي لا يوقفها شيء. هذا المستطيل الكبير الموجود هناك بين لا متناهيين هو الجزائر. وهذا المستطيل الصغير النائم هنا. هذا الحجم الصغير من الحجر الأبيض هو اللانهاية أيضا. وتنامين يا لوسيا في سرير من التراب والحجارة أكبر من بلدي. هناك، هناك، يتحدث سعيد بعينيه ولوسيا تنام هنا. قرب هذا الأحد المرح، على هامش السماء الزرقاء، هنا قرب الحياة. هنا حيث يدافع الأنصار عن ألوانهم، كما يدافع هناك أنصار الشمس عن ألوان راية محسنة. وتنامين هنا، وحيدة وسط قبور وحيدة هي الأخرى. ولكن، بنومك الفاضل استرجعت أحلامي. وأحب أن أنتقم لك من هذه الرصاصة الطائشة التي جعلتني أفتقدك، وأحب أن أنتقم لك من هذه الحرب التي نهبت سلامي.

●●●

اقترب حارس المقبرة من سعيد ونبّهه بأنه لا يليق الجلوس على ضريح. ماذا يمكن أن يفقه حارس المقبرة في هذه الأغاني المزدوجة للوحدة القصوى؟ ثم، أجل، كان ذلك تطفلا منه. ليس له أن يتدخل في حديث لوسيا وسعيد. فعلا، كان هذا الأخير جالسا قريبا جدا من رأس لوسيا. اعتذر وفض النزاع.

للأحياء مبادئ المجاملة، ولكن الأموات يملكون معرفة الحياة أكثر.

أنزل سعيد الحلزون الصغير، فراح الحلزون الصغير ينسحب مندهشا من جدّته، مندهشا من بقائه. سفينة صغيرة، سفينة صغيرة بلا طموح، في الاستماع إلى غريزتها الأبدية.

هل صحيح أن لوسيا هي التي تنام هنا على بعد أمتار قليلة منّي، أصحيح أن لوسيا التي هنا هي التي وقعت في الوثاق المثلج للأرض والشتاء؟ أهي لوسيا التي تستريح هنا، على بعد أمتار من ناظري؟ إنه لأمر غريب أن يبرد الموتى إلى حد كهذا.

أحضر الميسترال "أحسنت" الجمهور، أحضر الميسترال الغيوم.

قال سعيد: إلى اللقاء لوسيا.

لقد دخل الحلزون الصغير إلى كاتيدرائيته.

●●●

في البؤس، يبدو أن أبسط شعاع للشمس يحتقرك، وفي هذا الأحد كانت شمس إيكس أون بروفانس سفيهة بشكل خاص. كان منتزه ميرابو يصنع تخريمات. الملك روني يحرس معبد التمتمات، الينابيع تؤلف أغنيات. الطلبة يتجولون في الساحة مع الطالبات، كل واحد يفعل شيئا، وكان سعيد يحج.

كان يفكر وهو سائر إن كان فعلا يحب لوسيا. إن كان لا يزال يحبها. لم يحب سعيد لوسيا أبدا. لم يحب أمها أبدا. لم يحب الشمس أبدا ولا بنات أختها ولا الخبز، ولا الشحاذ في شارع العرب. إنه فعل لا يفهمه، فعلٌ محشوٌ كلهُ بالتجريد. ولكن سعيد كان دائما مع ما هو ضروري للحياة، قطعة الخبز للشحاذ، الشمس لأمّه والحلزونات للوسيا.

في ساحة الطارمة كانت المتأنقّات الثلاث ترقصن رقصة الفالس تحت مطر من الضوء. هنا لم تكن الشمس مزدردة فقط، لم تكن زرقاء وحسب –لماذا يقولون إن الشمس صفراء؟ – الشمس هنا محاطة بفيض من الضياء يسكر فان غوغ. الشمس مسرورة، مسرورة جدا، حتى لأنها تبدو بذيئة. قدّر سعيد رغبته الكبيرة في العيش. عندما تذبل وردة ونتخيل الربيع ننسى فصول الخريف. لا ننسى الوردة التي ذبلت، ومع ذلك ...

ولكن بالنسبة لسعيد ثمة انطباع دائم بارتكاب خيانة زوجية بغيضة عندما تخنقك هذه الرغبة في الحياة رغم الشهقات المتبقية.

ولأن الطقس جميل، ولأن السماء زرقاء، ولأن الطارمة تتلهى بتجميل نفسها كبطاقة بريدية، ولأن الفتيات فاتنات والحمام رشيق، ولأن أشجار الصفصاف تتكرش مثل متقاعدي إيكس أون بروفاس الذين نراهم على مقاعد منتزه ميرابو، ولأن الطريق الوطني رقم سبعة له ابتسامات في كل جهة، لأن الحياة ها هنا، الحياة يا إلهي، الحياة! ...

لا

هناك جانبا، لوسيا التي تنام قرب حلزون صغير، أيمكن لحلزون أن يملك ذاكرة أقوى من ذاكرة أحد السعيدين؟

فكر سعيد بأن عليه التفكير كثيرا. كان متأخرا وأهل لوسيا بانتظاره.

●●●

هناك عدة سكان من شمال إفريقيا في المدينة القديمة لا يكس أون بروفانس. الأطفال الذين يلعبون في السواقي بماء الأحواض، العيون السود المتوقدة تجعلنا نتوهم بأننا في الجزائر. بمقابل

مكتبة ميجان، في ساحة البلدية، يمكن رؤيتهم جالسين على حافة سبيل بمحاذاة الحمام الأليف المستأمن الذي قد يشتم فيهم البلاد التي تهجر إليها أخواته السنونوات كل سنة.

أولئك الذين لم يوظّفوا في مناجم غاردون أو في السدود يعملون غالبا في بناء العمارات. في إيكس أون بروفانس لهم خصوصية العيش معا. وإنه لمنظر غريب نوعا ما أن تبصر أحيانا فساتين عريضة ومبرقشة لامرأة بربرية تتنزه أو شيخا منفيا ينزع عمامته الناصعة دون أن يستسلم للقبعة أو للخروج مكشوف الرأس. لم يكن سعيد يحب رؤية يتامى بلدهم الأصلي. لا يحب الكشف عن همّ غنجهم، ربطة العنق الكبيرة جدا أو المضمومة جدا. لا يحب رؤيتهم يتجولون ثناء، الظهر محنى قليلا وقد استولت عليهم أحاديث لا تنتهي، يتعقبون هدفا من التلكؤ يجهلونه. ناس محطمون ومهملون في ضفة عدوانية وغير مكترثة في الغالب...

الشوارع تفرغ ليلا. ماذا تنتظرون، طعنات الخناجر. المعتدين على سيارات الأجرة. الملعونين. المحكوم عليهم. بؤساء العرق. هناك شيء بطولي في حضورهم. إنهم يعيشون -لا ينبغي أخذ الأمر حرفيا- عند من يحتقرونهم. عند الذين يتجنبونهم، إذن فهم يعيشون -لا ينبغي أخذ الأمر حرفيا- مع بعضهم، حمولة الألم نفسها، مستأصلين، مقتلعين، إنهم يعيشون. لا ينبغي أخذ الأمر حرفيا. لا يوجد شيء مؤثر أكثر من الغندورة أو هذه العمامة التي نراها أحيانا. يجب إنقاذ ما أمكن إنقاذه. وهؤلاء الأطفال الصغار الذين يلعبون في ساقية شارع الندّافين، حتى ولو اختلطت لهجة بروفانسية بكلماتهم فانهم يتحدثون بالعربية. في إيكس أون بروفانس، أو في جهة أخرى هناك اللازمة نفسها، الكلام المكرر نفسه. قمر فاتر أو شمس، الجزائريون مشاكل.

كان سعيد يتضايق عندما يلتقي بالأفارقة الشماليين لأنه كان أقل تعاسة منهم، أقل جروحا منهم. لأنهم ليسوا تحت ظلال شجرهم، في ضوء سمائهم، في صلابة أرضهم. ليسوا عند أهاليهم وسط جماعة الأطفال، حول مقعد أعرج على حافة رصيف. لم يكونوا هناك في قسنطينة، في القالة أو في وهران. كانوا إذن عند أولئك الذين يقبلونهم عندما يمرون خفية. والحالة هذه، في الحقيقة، هل يمكن أن يمر إفريقي شمالي في فرنسا خفية، أو في سويسرا أو في القمر؟ أيمكن أن تعبر التعاسة خفية؟

ولكنكم أنتم يا سعيد، انتم لستم كالآخرين. معكم يمكن أن نتحدث. يمكن أن ندعوكم، يمكن الحديث معكم عن روني شار وبتهوفن. لستم كالآخرين. نخاطبكم بالضمير أنتم. لا نقطب وجوهنا تقزّزا. ليس لدينا ردود الأفعال الخانقة. معكم، يمكن أن نتفاهم.

خطأ! إني كالآخرين وزوارقي الصغيرة لا تضيف شيئا ولا تنقص شيئا. إني كالآخرين، في شارع الرهبان، في سان ميشال، في الفوج أو في سانت ايتيان. إني كالآخرين، إني مع الآخرين. أفهم خبزهم وبندقيتهم. أتحدث عن أمي كما يتحدثون عن أمهم. أقبّل أبنائي كما يقبّلون أبناءهم. أخاف السلب كما يخافونه. إني كالآخرين. كل شيء يربطني بهم، كل شيء يجعلني مماثلا لهم. أنا لست سوى معهم، اختارت الشجرة غابتها، العلامة الموسيقية سمفونيتها. الوحيدون الذين أستطيع أن أفهمهم فعلا، هم أهلي.

آه! تلك الوجوه الهادئة، تلك الوجوه المرتابة بغموض وفي طرف عيونها سخرية لطيفة ومستسلمة، تلك الوجوه السمراء الدائمة الفتوة كفواكه بكيرة سقطت من شجرة، شجرة قررت أن تزهر ثانية في أحد أيام نوفمبر ... تلك الوجوه التي نتحاشى كما نتحاشى الأشياء التي نعرفها بنّية عميقة لتبرئة بلادتنا وجهلنا

ونقص مروءتنا. كما نتفادى النظر في وجه الضحية.

●●●

تقطن عائلة لوسيا في شارع صغير يسمى شارع فاندوم تجاه حمامات سيكستوس. شارع صغير تحرسه أشجار الكستناء العتيقة. شارع يتساءل عن العابر الذي يمرّ خلف النوافذ الكابية والفضولية. شارع يتساءل عما أحضره ساعي البريد للبيت المجاور، شارع يرى كرماء الناس في فرنسا، والشيوخ الطيبين كجعدة إضافية.

كان أولياء لوسيا مثل سدّادات تطفو على نهر. سدّادات طيبة، سدّادات ودودة، سدّادات ناعمة كقلب بلوط الفلين، سدّادات بألف عذر، ولكنهم سدّادات على أية حال. سدّادات ببساطة، سدّادات لا توجد إلا برئاسة قنينة. إنه لمن الصعب جدا التفاهم مع ناس طيبين كالسدّادات، مع ناس بؤساء كزجاجة مشقوقة، إنه لأمر مؤلم، إنه لأمر محزن أن تستوضح أو أن تضطر إلى شرح أي شيء لبشر لا يفهمون لماذا هم تعساء. بشر يتحدثون عن الحمّى الصفراء ويجهلون القملة. إنه لأمر عسير أن تفسّر كيف ماتت لوسيا مجانا برصاصة طائشة في أحد شوارع قسنطينة. لماذا لا يوجد سلم. لماذا الناس ليسوا اخوة. إنه لأمر صعب جدا وشاق جدا، إنه منفّر جدا، إنه لأمر مؤلم جدا، إنه لأمر عديم الجدوى جدا أن تستوضح سدّادات لا تفهم إلا لغة السدّادات ولها قلب ليّن كقلب بلوط الفلين.

ذلك هو الانطباع الفوري لسعيد. كان عليه أن يواجه ناسا طيبين. ناسا نظيفين جدا ويذهبون إلى خيمتهم البحرية يوم الأحد. لأن هؤلاء الناس يؤمنون بالأحد. ناس يعتقدون بأن على كل واحد أن يلتزم بيته. ناس يعرفون بأن الأحد لا يأتي إلا مرة واحدة في الأسبوع - في هذا اليوم نأكل الأرنب - ورأس السنة مرة

واحدة في العام – – في هذا اليوم يذهبون لزيارة جيرانهم — . هؤلاء الناس طيبون كما ينبغي، نظيفون، مجَمدون كما ينبغي في أخلاقهم ونواميسهم، هؤلاء الناس الذين تعني لهم كمية غبار صغيرة أن السيارة تسير بسرعة.

ناس ينوّمونك إن أصغيت باهتمام كبير إلى التمتمة السرمدية لقلبهم الذي يهرّ.

لم يصدّق والد لوسيا، كان قد استقبل رئيس البلدية، واستقبل الصحفيين، صحفيين تنقصهم الرّوسيمات. لقد قرأ أيضا في يومية بروفانسية، إحدى هذه الجرائد التي تتخبط في مستنقع ثلاثي الألوان، لقد قرأ إذن ––واشترى كذلك عدة نسخ من العدد– – بأن لوسيا اغتيلت من قبل الفلاقة(21). طبعا إن الموت برصاصة أكثر رومنسية وإثارة من الموت بذبحة صدرية. إن ذلك سيثري فولكلور الزاوية.

كان وقت الطعام طويلا وشاقا، أما سعيد الذي ليس من عادته تشهي الأكل، فقد هضم عددا لا بأس به من الحقائق الخالدة والنحيب والمجاملات المكشوفة للعيان والتعازي.

هناك في زاوية غرفة الأكل المنخفضة الحزينة بيانو ملمّع كما يليق، وفوقه كانت الزهور تذبل. يمكن أن نرى على البيانو لوسيا في سفينة صغيرة بلباس البحر، وثمة روزنامة لا تبيّن شيئا. لا الجو البارد ولا الجو الحار، هي التي تتضايق من ضعف إرادتها. وقد ثبّتت في الجدار شهادة شرفية للخدمات الوفية في شركة السكك الحديدية الفرنسية. هناك النظافة المفرطة لهذه السكنات الموجزة في بروفانس. هناك أيضا قليل من الشمس الآتية من خلل النوافذ الضيقة. هناك خاصة دهشة سعيد اللامتناهية وهو يتساءل:

"ها هنا عاشت لوسيا إذن؟ وهنا كبرت؟ ها هنا بدأت تحب

رونسار إذن، أو بومارشي أو ماريفو، وبعدها ستاندال أو بيغي؟ ها هنا قرأت دروسها إذن، وقالت إني ذاهبة إلى الثانوية؟ ولكن، في هذه الغرفة هناك سعيد خاصة، سعيد الذي يملأها كأثاث باروكي، كبير جدا، كأثاث قاس، أحد هذه الأثاث التي تفسد فرحة أي غذاء عندما تذكرك بالشجر الذي قدّم قربانا من أجل صناعتها، ولكن أيمكن أن نأكل بلذة عندما تواجهنا ذكرى؟

- ... وفتاة طيبة يا سيدي، أقول لك تحصلت على الباكلوريا في السابعة عشرة دون دروس خصوصية. تعمل كل يوم بمفردها ... تحصلت على كل الجوائز. لم تكن مثل جان فرانسوا، جان فراسنوا ليس غبيا، ولكن الدراسة لا تهمه. كيف وجدتم الأرنب؟ ... افتقدناها كلها تقريبا بسبب التهاب أنسجتها ... فتاة طيبة، أقول لك ...

لحسن الحظ كانت على حافة النافذة، سمكة حمراء في بوقال، سمكة حمراء تحوم حول نفسها، تحوم حول نفسها مثل أفكار سعيد ...

أرسل الصغير جان فرانسوا اللحظة بطاقة بريدية للجزائر.

– أية تعاسة، علق الأب، هو أيضا ذهب إلى هناك، إن " هم" استدعوه.

"هم" استدعوه، "هم". الحياء الرائع وفطنة فرنسي متوسط لتحديد الحتميّة أو الدولة. قدر[22] السدّادات يتوقف على ضمير نكرة.

الصغير جان فرانسو، واحد وعشرون سنة، ليس خطأ الله، وليس خطأ سعيد أيضا. وليس خطأ أبيه أو أمه أو النجوم، ولا خطأ لوسيا في بلباس البحر في سفينة صغيرة.

لم يكن خطأ أحد. مع أن ...

ليس خطأ شجر الصفصاف إذا تواجد جان فرانسوا هناك. ليس خطأ السماء، ليس خطأ مباراة كرة القدم التي جرت قبل قليل. ليس خطأ الأرنب الذي أكل الزعتر لينتهي يخنة.

كيف تريدون أن يستطيع سعيد هذا أن يتكلم عندما تكون الأسماك الحمراء التي تدور حول نفسها في بوقال، في فتحات النوافذ، في أعلى شارع صغير ببروفانس، عندما تكون الأسماك الحمراء أكثر ثرثرة وإشراقا من جزائري ينوي بناء جسور، ثم جسور، وجسور أيضا.

اعتذر سعيد بعد الطعام وخرج. في إيكس أون بروفانس أكثر منه في قسنطينة، كان بحاجة إلى أن يلتحق ببيته في الشارع.

لا نموت أبدا من أجل شيء، كان سعيد يردّد وهو ينظر إلى الينابيع التي كانت تردد صلوات. كان يحس بأنه يجوّل هيكله في غابة غريبة. لم يعد يفهم الكلمات. لم يعد يفهم الناس. فقط كان يعرف أن ليلة سوداء تحيط بالعالم، تحيط بالنجوم وتحيط به هو نفسه، فقط كان يعرف أن شيئا تغير. أن شيئا جديدا يعلن عن قدومه. بالنسبة إليه وبالنسبة للآخرين. شيء مرعب، لا يمكن تفاديه. وهذا الشيء يجب قبوله، إجازته، ولو أن موجة من الحنين إلى الماضي قد طبعت في أعماق قلوبنا.

دخل سعيد إلى حانة صغيرة كتب عليها "عند جانيت".

كانت تشبه ملهى بسقف منخفض تتخلله روافد من الخشب الريفي، وثمة أضواء كثيرة ورايات صغيرة وسط قنينات. كانت طاولة الشرب كابية، والخدم متشابهين والزبائن أكثر تماثلا. وفي إحدى زوايا القاعة آلة موسيقية تغني ألحانا صدئة. وهناك سكير يشخر في طرف طاولة الشرب. تحت صرصور ضخم من الخزف البشع المنظر، جلس زوجان عاشقان، زوجان مغرمان، زوجان يهيمان ببعضهما ويتعانقان في غير مقام. يتعانقان دون تبادل

القبل. يتعانقان كما نأكل حلوى في عجالة نهمة وبلذة بهيمية. يتعانقان كأنهما وحيدان في الدنيا، وفعلا، يبدو أنهما وحيدان لأنهما لا يشعران بأي حياء تجاه شيوع غريزتهما، بأي انزعاج. السكير يشخر أكثر فأكثر. الكلمات، الكلمات دوما تتلهى بالرقص في رأس سعيد. الكلمات، الجمل، الأفكار. العاشقان يتعانقان. السكير يشخر. دائما.

الوقت يرقص رقصة السربندة المجنونة، الرعناء، الخرقاء، غير المنسجمة مع الحالات التي لا نفهمها ولكننا نحس بها كثيرا. هذه الحالات والمصادفات تدركها الحواس كشريط ذهبنا لرؤيته دون أن يكون لنا خيار حقيقي.

جلس على المقعد المجاور رجل نحيل، وجه بارز التقاطيع، مثلث، شعر داكن، عينان من الفحم وفم يضحك. إنه فنان اشتهر قليلا وأصبح يشرب. التفت الرسام نحو سعيد، تجاه سعيد الذي لا يعرفه. وفي هذه الحميمية، في هذه الألفة التي تنتجها الكحول أحيانا، قال: "إنها لحماقة كبيرة، أليس كذلك!" لم يدر في أي شيء يفكر سعيد. سعيد لا يعرف في أي شيء كان يفكر لأنه لم يحدد له هذا الشيء "الأحمق جدا". قال ببساطة: "إنها لحماقة كبيرة". ولكنه يحدث أحيانا أثناء هذه اللقاءات المصادفة أن يقع تفاهم، أن يحدث اتفاق متبادل، أن يولد تعاطف ظرفي، صداقة رفيق باروكي جاثم متلكم على مقعد مرتفع في ملهى قديم كتب عليه "عند جانيت". في هذه الساعة المتأخرة في ايكس أون بروفانس كما في القمر، في هذه الساعة المتأخرة حيث يبدأ في التفكير الناس الذين لم يعودوا قادرين على الفهم، الذين لم يعودوا قادرين على التفكير، وهم يطلبون في حدود منتصف الليل ريكارا مضاعفا مكبوسا كما ينبغي ...

انحنى الرّسام باتجاه سعيد، كان يفوح بالنبيذ الأبيض. رأى سعيد بأنه وسيم، بأنه مأساوي، وجه على طريقة دوستويفسكي.

مأساوي لأن طريقة حديثه تجعلك تشعر بأنه لا يغش، بأنه يقول ما بداخله، دون أن يكون بحاجة لمن يفهمه، دون أن ينتظر الموافقة على ما يقوله، دون أن يطالب بالرد. المجاهرات بالرأي تكون مناجاة باستمرار. ثمة ناس هكذا، صدورهم تضيق كثيرا، وهم كالقاطرات القديمة تخفف الضغط بالصفير، يتحدثون إلى غريب في مقهى ببروفانس.

– أنتم متزوجون؟ تساءل الرسام بغموض.

وصل سعيد إلى ريكاره الثالث.

– لست متزوّجا، إني ميت.

– انفجر الرسام ضاحكا!

– صحيح، إن لك وجه ميت!

– وأنتم، هل أنتم متزوجون؟

– لا، أنا أسوأ. أنا أرمل. أنا أرمل مذ سن العشرين. أرمل موهبتي ...

بشرفي، لقد أصبح غنائيا، ربما كان رساما، ربما كان كلبا، ربّما كان ظلاّ، ربّما كان اسطوانة بوجه إنسان راحت تغني بالمصادفة لمستمع شبحي.

ربما كان ذاكرة هارفة تقول: "إني أرمل النجوم، أرمل كل شيء، أرمل كل ما كان لا يضجرني قديما. أرمل المقاومة، أرمل الأبطال، أرمل الدنيئين، أرمل الشارع، أرمل الأرصفة، إني أرمل! ..."

– يا خادم، نبيذ أبيض بلا ماء في كأس كبيرة ...

إني أرمل. يقول إني أرمل كسابح يلهث من فرط الرغبة في الغوص في عنصر يفرض عليه نوع من المزوشية استكشافه دوما وأبدا.

أفرغ كأس النبيذ الأبيض دفعة واحدة. كانت له إحدى هذه الابتسامات الخاصة الضجرة التي توقعَّ فم السكيرين عندما يفرغون كأسهم، وعندما يبدون معاتبين الكأس لأنهم بحاجة إليها. كان بداخل سعيد شيء من أسلوب روائي نائم. ما يشبه محقق صحفي للقلب. كان يهتم بأمور لا تعني في العادة سوى المعنيين المباشرين. كان مأخوذا بشيء خاص بالانتقائية، فضول الإنسانية الذي ليس احتقارا، بل ربما هذه الطريقة البكماء المضمرة في التضمان مع كل أرامل ابتسامة، صفصافة، إحدى اللوسيات، غزالة أو نجمة.

أضاف الرسام بلا مقدمة:

– أنتم، أنتم لكم رأس شمال إفريقي، إنهم لا يحبّونكم هاهنا، أليس كذلك؟

لم يجب سعيد، في حين أضاف الرسام:

إنهم لا يحبونكم لأنهم اغبياء، مثلها، هي لم تكن تحبني لأنها غبية. كانت لي موهبة قبل، عملت، عرضت. لي رسالة في جهة ما جاءتني من ماتيس تشجعني. ولكن هذه الغبية ذهبت. وأكثر من هذا مع موثق عقود! غبي مسنّ مثلها. لأن له مالا. والآن حان الوقت لألعب دور الغبّي. عندما أقول لكم بأني أرمل فلأني أخجل من الاعتراف لكم بأني زوج مخدوع. الأمر سيّان، زوج مخدوع أو أرمل.

العاشقان يتعانقان دائما، السكير يشخر دائما، الخدم مستمرون في تقديم الكحول، شرطي المداومة يتثاءب.

– ... أنا عرفت ناسا من إفريقيا الشمالية لم يكونوا دنيئين، قال الرسام.

انفجر سعيد ضاحكا.

قال: أنا عرفت ناسا من إفريقيا الشمالية كانوا دنيئين. صحيح. يمكن أن تتساءل دائما لماذا نظن بحضور غريب بأننا ملزمون بالتغني بمدائح شعبه، جباله، سهوله، موسيقاه، وعاداته، أو ببساطة كسكسه وشايه بالنعناع...

فجأة، تقاطع سعيد مع نظرة سعيد في المرآة التي تكسرها الزجاجات والرايات الصغيرة. وكان سعيد وسط زجاجات السّانزانو، زجاجات الكوري القديمة. زجاجات المارتيني والبيرنو. وكانت كل الرايات الصغيرة غاضبة. وبدت كل الرايات الصغيرة أجفانا خائبة تتدلىّ بحزن. وقتئذ، وفي المرآة المكسورة، انتصب وجه لوسيا بانذهال هادئ كشجرة، كشجرة تنظر وتقول لك: "لست متّفقة".

●●●

"إني سكران" فكّر سعيد. لم يكن ثملا في حقيقة الأمر. بالعكس، لقد بلغ ذروة الجلاء. كان في لحظة الاستهلاك القصوى للإدراك. فعلا.

كانت لوسيا هي التي تتأمله ما بين الرايات الصغيرة الباكية. وكان سعيد هو نفسه جنب هذا الرسام الأرمل المخدوع. هذا الرسام الذي كان له حب وموهبة، هذا الرسام الذي تلقى رسالة من ماتيس يحثّه على الاستمرار. غير أنّ الرسّامين تحت رحمة ترمل أو انخداع زوجي. الحلزونات تحت رحمة الشمس. غريب، الفطور بحاجة إلى مطر. الحلزونات تهاب الشمس. غريب. كل شيء متنافر أحيانا. رسام لا يرسم ويصبح شاعرا، مهندس يبني جسرا يجب هدمه، رايات صغيرة ضجرة على زجاجات ... ليس هذا مكان الرايات، الزجاجات. إنه لشيء مذهل ما يمكن ملاحظته عندما نكون سكارى، غريب. كل شيء أكثر غرابة من التعاسة. لا شيء أكثر إدهاشا وشذوذا وتنافرا من التعاسة. التعاسة ليست

إنسانية. ليست لها قامة إنسان، إنها عديمة المعنى.

– ... أنا رسام. وأنتم، ماذا تفعلون في الحياة؟

إنها الساعة المتقدمة للاعترافات.

استغرق سعيد وقتا للإجابة:

– في الحياة، ماذا أفعل؟ لا أفعل شيئا. وهذا يزعجني.

– أنا أيضا، قال الرسام، لا أفعل شيئا. أنظر. الناس الذين ليست لهم موهبة يقبعون في الشرفة وينظرون العابرين في الشارع. أنا مثل البقر. انظر القطار يمرّ، القطار الذي يعبر من دوني. إني صالح للنظر، وبطريقة أخرى فأنا لا أصلح لشيء "ننظر. ننزعج، ننبهر بكل هذه الحقائق التي نخزّنها، التي لا نجعلها على مقاس العباد الذين يفعلون شيئا ما.

– نغش، نقضي حياتنا في الغش. من الشرفة، ننظر إلى الطريق. الطريق بسيارات، السيارات بأحياء، ونظل في الشرفة. ليس لنا حتّى عذر الفلكي الذي يتأمل نجمة لضبط نظام، من أجل توسيع النظرات، من أجل مضاعفة الآفاق. ننظر، نستمع، ندوّن ملاحظات نخزّنها في العيون، في الآذان. لا نفعل شيئا. هذا ما يجمعنا بالأموات، ألاّ نفعل شيئا.

واستخلص الرسام:

– ألاّ نفعل شيئا، هذه هي التعاسة.

يجب ألاّ يتأخر سعيد في بروفانس. وفي أحد الأماسي أبحر. لم يكن على الأرصفة سوى كلب، كلب فضولي مريض. ربما كان سيده. ربما كان الضّجر. ربما كان عظما. كانت السفينة سوداء تفوح بالقار. كانت سفينة أغنام قديمة تسمى "جبل-الأوراس"، طبعا، مجرد صدفة. تأمل سعيد الأضواء التي تغرق والتي تطفو كعرائس النيل اللزجة الجامدة، اللامبالية على الميناء القذر. مستندا إلى حبل خفيف راح ينظر إلى المدينة التي لها ملايين وملايين النظرات، كان يتأمل المدينة التي سيهجرها، أسفل البطن الهائل لفرنسا، كان يتأمل مارسيليا.

وعندما ابتدأت السفينة ترتجف كاستجابة عصبية، كجرأة قلقة، فهم سعيد أن السفينة ليست هي التي تفصله عن ملايين النظرات هذه، وليست السفينة هي التي تبعده عن بروفانس، ولكنه هو الذي يذهب.

مع ذلك اخترع لوسيا في كل مكان، بيديه اللتين تدقدقان على المتراس، بركبتيه اللتين ترتعدان خفية. كانت له لوسيا في كل جهة، في شعره الذي ابتل بالهواء البحري، في عينيه، تعرفون هذه العيون التي تبتلّ دون أن نعرف إن كان بللها ناتجا عن ريح صرصر، عن سيجارة أو عن زهرة مغتالة.

على الجسر الأمامي رتّب عساكر بنادقهم في شكل أنسجة وخيموا. إنه لأمر طريف أن يخيّم عساكر بأسلحتهم على جسر سفينة.

لحسن الحظ، لحسن الحظ الشديد كان الليل جميلا. لحسن

الحظ الشديد كان البحر طيبا، أحد هذه البحار التي تبتسم لك بنجومها الملقاة من الأعلى ومن الأسفل، أحد هذه البحار التي تجعل من خليج الأسد مجرد عرض تمهيدي للأغاني الآتية. مقدمة استهلالية للفجر. ستشرق الشمس في الجزائر غدا.

عندما اندفعت السفينة، عندما أصبح الوريد باخرة، لمّا غدا "جبل الوحش" بعيدا جدا عن الأرض الفرنسية أدرك سعيد بأنه اختار الآن، اختار الرسو في ضفة أخرى، عندما غدت السفينة باخرة عرف سعيد بغموض، وكطفل صغير طيب جدا، طفل صغير تعيس جدا، عرف سعيد لماذا لم تكن عيناه جافتين تماما.

مكث طويلا ينظر إلى ما لا نراه، إلى ما لا نسمعه، إلى ما لا نتنبأ به، كان على جسر سفينة صغيرة ميّممة تجاه قدرها، سفينة صغيرة بإرادة قوية وعلى جسرها عساكر يخيمون ومهندس له عيون ليست جافة كلية.

إنه بعيد الآن، بعيد جدا ضريح لوسيا. رسمت طائرة حلقت حينا من مارينيان نظرة دودة براقة، صفراء وحمراء، نظرة ترمق النجوم بعين الغرام. تصوّر سعيد نفسه طيّارا، كان بمقدوره التحليق فوق كل أقطاب العالم، كل أقطاب قلبه، كان بمقدوره القيام بجولة صغيرة فوق المقبرة الصغيرة لإيكس أون بروفانس. لوكان طيارا لذهب بمساعدة الأجنحة إلى بيكين، إلى نيويورك. ولكن سعيد كان وحيدا. وحيدا على جسر سفينة صغيرة لها إرادة قوية.

تصاعد نغم شبّابة من عمق الرصيف الذي تقود أدرجه إلى الحبل الخفيف الذي مازال سعيد متكئ عليه، نغم شبابة ... أمر يولّد الرعشة، نغم شبّابة في البحر. اعتدنا سماع نغم الشبّابة هذا في السهل. نغم شبّابة، بظاهرة منطقية لتجميع الأفكار فانه قطيع، راع، ليل يرخي سدوله، سلام في الأرض. ولكن، هنا، في البحر،

على الأمواج، على اللجة القاسية، على الهاربة، المخيفة، فان نغم شبّابة هو أمر مفارق، موسيقى إلهية هشة، مثل زهرة صغيرة جدا لسعها وحش. والحال أن البحر غدا وحشا، إن له الآن لون الاسماك، لم يعد يبتسم. كان ذلك فخا ولغزا.

ولكن في أعلى السارية الكبيرة، هناك نجمة صغيرة حمراء ساهرة، نجمة صغيرة يصادف تمايلها أحيانا الثبات الخالد لنجمة اخرى، نجمة حقيقية موجودة في جهة ما، في السماء وفي قلب أيّ سعيد.

كانت الشبّابة تروي قصة عن الجزائر، هواء نقي مستعار من هواء بحري متسكّع في الهضاب العليا، مستهتر في الحضنة، كانت تتحدث عن لوسيا التي تنام هناك في إيكس أون بروفانس، تتحدث عن جان فرانسوا، أخ لوسيا، الذي يحارب في بلاد سعيد، تتحدث عن اللامعنى، عن المشاكل.

تسربت نظرة سعيد إلى هذه المساحة ذات الأبعاد المزدوجة الشاسعة، كان هناك الزّورق الصغير الذي يتابع عمله بتؤدة وثبات والحلزون على الضريح وفي كاتيدارئيته، ولاسيما هذه العزلة العظمى لبرهة على سطح البحر. من كان ربّانا بعد الله، وقبله؟ أهو القبطان خلف منظاره الصغير ؟ لا ! من يقدّر مصيره ؟ من قرر التفكير بشكل صحيح ؟ من قرر الاعتقاد نهائيا بأن التعاسة هي ألاّ تفعل شيئا ؟ بعد، قبل الله، من كان سيّدا لهم وبهم غير هذا الذي يبحر مساء على قارب صغير، عازما على قيادة قدره لبلوغ غايته، عازما على فعل شيء ما ؟

لم يكن سعيد شقيّا، لقد اختار هذه السعادة التي لا نحبّها. اختار هذه السعادة التي نقرأها في الوعي المطمئن البال.

كان سعيد مسرورا.

قال لرسام إيكس أون بروفانس: "لا أفعل شيئا" واستنتج الرسام: "هذه هي التعاسة".

فَعَلَ هو فعل وجب تقبيله على خدّيه، فعل وجب إجلاسه على قواعد الآثار التذكارية القادمة ؟ فَعَلَ...

لا أن تسيء، لا أن تفعل بالتقريب، ولكن: أن تفعل، أن تجيد، أن تفعل خيرا، أن تقوم بمأثرة، يا إلهي. أن تقوم بمأثرة ! تقدم خدمة، أن تقدّم خدمة ليس كما يناولك نادل كأس بيرنو، ولكن أن تخدم. أن تصلح لشيء. أن تقدّم للنهر سواعد صغيرة، سواعدك الصغيرة، إثراء النهر بأفكارك، بعرقك، وبدمك إن اقتضى الأمر، حتى إذا وصل هذا النهر إلى البحر يوما، يكون جديرا بالمحيط، حتى يكون أهلا لا تساع المحيطات كلها.

القارب الصغير يرسم الآن رقصة الرّوميا. ثارت أعصاب خليج الأسد الذي أراد أن يكون في مستوى سمعته. رقص "جبل-الأوراس". استنشق سعيد هواء البحر، أكل الأفق، شرب المحيط واتساعه. كانت إرادته وإمكانية عيشه في مستوى قراره. لن يدخل إلى الجزائر لركوب قطار كهربائي، لشراء جريدة، لاحتضان والدته.يدخل إلى الجزائر ليفعل شيئا. من سحر اللغة الفرنسية أنها جعلت الفعل بحاجة إلى مفعول، ومن علامات الأزمنة في الجزائر، كما هو الحال في أيّ مكان آخر، أن الجزائري له دوما شيء يفعله، لم يعد سعيد يتنفس لا البحر ولا المحيطات، لأن البحر والمحيطات كانت بداخله. لأن العاصفة كانت بداخله. لأن الصّحو كان بداخله، لقد اختفى سعيد عن الأنظار منذ سنين. وأخيرا عثر على نفسه. بإمكانه ان يلاحظ أنه يشبه نفسه بغرابة. نزل إلى الرصيف بوساطة السلّم. استمع إلى الشبّابة. كانت وجوه عمال إفريقيا الشمالية الذين تمكنوا من الحصول على تأشيرات العودة وجوها وقورة.

كل ما في الرصيف ذو رائحة طيبة، رصيف يحتوي على حمولة من الناس اختاروا بالتأكيد شيئا يفعلونه مثل سعيد.

بقيّ سعيد على الجسر إلى وقت متأخر. كان مرتاحا على الجسر، سواء كان من الحجر أو من الفولاذ أو من الخشب. كان يستمع إلى السّر. البحر الممالق الهائم يعانق السفينة. في قاعة استقبال الدرجة الأولى كانت الموسيقى ترقص، كانت هناك حفلة راقصة في عرض البحر، رقصة الموج، رقصة المركب، رقصة القارات ورقصة الأفكار في أزواج ملفوفة بالمغامرة، بالدخان، بالتبغ الرقيق وبخار الكحول. موسيقى السّيربنذة للأسماك والتيارات التّيحبحرّيية، رقصة فالس القلب تعيد حكاية حب.

كان سعيد وحيدا ولكنه ليس معزولا لأنه اختار. يعرف الناس كما يستنشق الريح. وكان هناك لا منتهى من كل الجهات، لم يعد هناك فراغ.

بالنظر إلى البحر، بالاستماع إليه، باستنشاقه، بإمكاننا القيام بعملية استبطانية. بالاستماع إلى ارتعاش بطنه الراقص يمكننا الغوص قهرا في أحشاء وجعه. مع أن...

".. لوسيا، كنت أودّ أن أراك على شاطئ وردي، ابتسم لك وأحدّث النوارس. كنت أودّ يا لوسيا أن ألهوّ في الشاطئ دون أن أبنيّ قصور الحب. أو على قارب أحرّر رومنسيّتي وأجدّف باتجاه عرض البحر، على بحر كلّه زرقة، تحت سماء كبيرة كلها زرقة وأنا انظر إلى عينيك الأكثر زرقة من البحر ومن السماء، وأقول لك يا لوسيا: أحلم وأندفع بين ثلاث قبب، عند أمي كنا سنلعب مع أبناء الأخ. ولكنها، ولكنها الحرب يا لوسيا، والبحر الغاضب اختار العاصفة. لا يوجد أيّ شاطئ، لا يوجد أيّ قارب، لا توجد عطلة صيفية إلى حدّ الآن".

نظر سعيد إلى ساعته تحت ضوء عود ثقاب. انطفأت الكبريتة،

ولأن سوار الساعة كان قديما، ولأن سعيد أراد إشعال عود ثقاب آخر بحركات عديمة المهارة انكسر السوار وسقطت الساعة في البحر.

●●●

لقد دقت الساعة!...

عندما يتدخل الرّب ... الرّب مخرج مهيب، عندما يتخلى عن مسائل العدالة، عندما يغدو روائيا، نشعر بأنه يفعل بنا ما يشاء.

الرّب لا يلهو أبدا.

ولكن، قولوا لي لماذا سقطت ساعة سعيد في الماء ؟ كأن الوقت يريد أن يغرق. كأن الوقت لم يعد في الوقت المحدّد. كأن الوقت يتدارك كل الوقت الضائع وهاهو يسترد كل ثوانيه. كأن الوقت يحرق مخطوطاته..

روت هذه الساعة قصة حبٍّ للوسيا. روت كل صخب الحزن، كل موسيقى الأمل. قالت هذه الساعة بأن ثانية وثانية لا تساوي ثانيتين، تساوي قبلتين وألف سنة من الذكريات. روت هذه الساعة بأنها كانت شهيدة الساعات التاريخية...

الساعة التي نعيدها إلى أول يوم من نوفمبر، هذا الشهر الذي غيّر توقيت فصول الشتاء إلى الأبد. الساعة التي تحدّد الوقت في عرس الموتى، في ولادة الحقائق، الساعة التي كانت تعرف في أي ساعة قتل هذا الجزائري أو ذاك، في أي ساعة مات هذا المجنّد أو ذاك، والآن وقد تعبت من الوقت، فإنها ذهبت لتستريح في عمق الوقت والبحر.

لقد دقت الساعة.

●●●

عندما يتدخل الله. ولكن الناس هم الذين يقرأون الساعة. فكّر سعيد بالناس.

هي السنة الجديدة بالنسبة له وقد ابتدأت الهجرة. لا بعد ولا قبل المسيح أو محمد، لا بعد ولا قبل 1789 أو 1917، لا بعد ولا قبل كونفوشيوس أو سقراط. لا بعد ولا قبل 1830 أو 1945. كان بالنسبة لسعيد يوم السنوات الجديدة وكل شيء يتحدد بالنسبة إليه، من الآن فصاعدا، بالعودة إلى أول نوفمبر من سنة ألف وتسعمئة وأربعة وخمسين...

أول نوفمبر من سنة ألف وتسعمئة وأربعة وخمسين !

1954.

الأرقام ! الأرقام !

ندفع إلى البقّال، ندفع إلى الصيدلي، نسدد لطبيب الأسنان، نتخلّص من دين... الأرقام ! لعبنا الأربعمئة وواحد وعشرين، راهنا على الأعداد الزوجية والفردية. لعبنا الدّومينو. سدّدنا الكراء، أودعنا عربونا أو تسبيقا، اشترينا الجريدة، اشترينا بيتا، اشترينا فيشة الهاتف، سألنا "كم أدفع لك ؟".

اشترينا، دفعنا، سدّدنا، سبّقنا، تخلصنا من دين، عقدنا صفقة، ولكن الأرقام، هذه الأرقام التي تغدو بشكل ولحم، هذه الأرقام التي تحصي نوعية الورود المداسة، والجزائريين المغتالين، هذه الأرقام التي تصنع الجمع والطّرح، هذه الأرقام الخاصة بالهاتف أو بإحصاء عدد الفلاقة المقتولين، هذه الأرقام التي تصنع حسابا، التي تطالب بحساب، وفي نهاية المطاف تنشر كل المشاكل، أي نعم، هذه الأرقام هيّ أرقام عربية !

في حين أن الجزائري ابتدأ الحساب في أوّل يوم من الشهر الحادي عشر من سنة ألف وتسعمئة وأربعة وخمسين.

قبل هذا كانت مسألة جبر.

انتهت الكتابة بالحروف.

●●●

اليوم، لم تعد الروايات في الكتب. اليوم، النظرات هي العذر الوحيد للعيون. اليوم، تجمّع نظرات العيون كلّها وتوجهها صوب شاشة الحقيقة القاسية من اجل أكثر العروض مأساوية. كلّ مناً يذهب إلى السينما منكّس الأجفان. والعرض دائم. هناك قبلات وأغاني تطير. هناك سواقي يختلط شجر دفلاها بضفائر أخرى. هناك ابتسامات ووجبات ممتازة، صحون فارغة وشهوات كبيرة، هناك سماوات زرقاء ومروحيّات، سيارات تذهب إلى أرباض المدينة، علاقات عاطفية مثلومة، بشر يأكلون بشرا، هناك سماوات متغيرة وحقائق أبدية، هذه الحقائق التي يؤكدها المشرّع الوحيد المقبول شرعا: الإنسان الذي يعرف جيّدا كيف يعترف بأخطائه ليستحق رضوان الله. لأن الله هو الذي نجده عندما نضيع، ليس الإله الروحاني للغيوم التي أضحت كواليس لقصور العدالة، ولكن الإله الحليم القريب من البشر في وحدته اللامتناهية وفي بساطته الكبيرة، إله خفي، إله من دون شرائط السلطة، إله بلون البشر، إله الحقائق التي لا توجد بالضرورة في السماء فقط، إله صديق البشر، إله يحبّ صراصير الليل، الوجوه والشطآن، إله أقل ورعا وأكثر أخوة، إله يمكن العثور عليه بعيدا، في غير الكنائس، إله لا ينفر من المشي في الشارع.

إله، إله تمثيل للإنسان، استباق مشرق لما سيكونه الإنسان عندما يصبح قويّا جدا بالقلب والعلم، سيذهب ليحلّق فوق البحر والرمل، على الجبل والسهل، لا شيء أكثر شؤما من إله يدُرك هكذا، يُحبّ هكذا.

لم يعد الله قائما لإهداء التوراة أو القرآن.

الإله هو إنسان الغد والإنسان هو الإله الطيب قريبا.

اليوم لم تعد الروايات في الكتب.

●●●

الرّوايات التي نتصفحها بسرعة في الأثر السرمدي... الروايات التي نتصفحها بسرعة في دروب حبّنا. الروايات التي لها جوائز كثيرة حتى تقنع بقائمة الجوائز. الروايات المؤلفة من اللّحم والزهر، التي لاتباع في المكتبات، هذه الروايات التي لا نشتريها أبدا، ولكننا نقتنيها بحياتنا، بموتنا، بعيوننا... صحيح، اليوم لم تعد الروايات في الكتب.

وسعيد الذي يحلم على كرسيّه الطويل، المحاط باللانهاية، بالريح التي تبكي وبالنجوم المشرقة، سعيد يستمع إلى رؤيا حياته ويتأمل العيون، عيون قدره.

تلك كانت الرؤية الغسقية للأحلام الحبلى، كانت تلك يوسفيتان وضفاف جسر ما. إنه بوزيد الفرح لأنه اختار أن يكون فرحا، كان ذلك مئة رفيق وألف يعسوب ثم هذه الغزالة التي هي عذر الصحراء، الروايات التي نتصفحها بسرعة في الأثر السرمدي، ليست هذه الروايات سوى حكاية في نهاية الأمر.

يجب أن تنام، يا كهلي العزيز.

لأجل عينيّ بوزيد ولأجل عيون الغزلان.

للذراعين اللتين تصنعان الجسور.

يجب أن نحلم يا كهلي العزيز.

ابتدأ الحلم في أحد صباحات نوفمبر، الحلم غال جدا. الحلم يوقظ. ولكن الشمس تكسر الرؤى والأوهام لاحقا، وتكون الحقيقة أكثر جمالا.

على كل حال، الشمس تشرق كل يوم والروايات لم تعد في الكتب.

●●●

سعيد ينام.

تذكر يا قلبي أصابعي وهي تعزف على المندول. بهذه الأصابع مشطت شعرك، نسجت رايات، لامست زرّ المصعد الذاهب صوب النهار. استرجعت ذكرياتي وساعتي. صافحت ناسا.

تذكّر يا قلبي أصابعي وهي تعزف على المندول.

هذه الأصابع للهامة واليمام. بهذه الأصابع أشدّ مقوم المحراث. أشدّ جريدتي وأشدّ وعدي. أرسم جسورا ومظاهر جانبية للنساء. بهذه الأصابع أنعّت الطريق. آحيّر القمر، أصطاد أسماك الغجوم، أجعل الوليد يبتسم.

بهذه الأصابع أزعج القيتارة. طفل يقبّل أصابعه. نقطع الطريق، بهذه الأصابع ننشر الغسيل، راية الحرب أو الكفن، بهذه الأصابع.

بهذه الأصابع نقول صباح الخير.

نقول صباح الخير، نقول وداعا، نأكل الفلفل، نجني الكرز، ننظّم أوراقنا، نمشط شعرنا، نجني البرتقال، بهذه الأصابع. نطلب من الهوام أن تفتح لنا أبوابها. نطلب من الأم أن تداعب خدودنا، نكتب تقارير، أشعارا. الأصابع تمدّد القلب كما يمدد المطر غيمة، كما يمدّد الشعاع الشمس، كما أن الوردة هي علّة وجود الساق.

●●●

وإذا كان سعيد ذاهبا إلى بيته فقد كان ذاهبا إلى ذاته، اجتمعت عشر أصابع في يديه، إصبع لكل نجمة ولكلّ جزائري.

في الحقيقة يستلزم عدة ملايين إصبع لإنسان واحد.

الجسر، هو حكاية حب كذلك.

لا شيء ينتهي. بألفة هذه المتغيرات نكوّن أنفسنا من جديد. بخوض حياة أخرى نصبح إنسانا آخر. يمكن الحفاظ على كل الآمال وفقدان الأوهام كلّها. لا يوجد وهم ممكن. الحقيقة هاهنا بعيونها الهادئة القاسية. إنها تنظر إليك. لا شيء يقتلها، حتى برودتها، برودتها الشخصية.

يجب قلب الصفحة. هل فكرتم في وزن الصفحة التي نقلبها ؟

نتصفح كتاب حياتنا. نكتب كلمة النهاية، في حين أن كل شيء يبتدئ. كل شيء سيبتدئ دائما. إنه الإبدال، للآخر الصفحات البيض، الصفحات غير المجعّدة، الصفحات الغنية بالمستقبل الزاهر، يجب قلب الصفحة.

يحدث أن نكون شيوخا في أية سن. شيوخا كلما قلبنا صفحة. يجب أن تتغير الأحداث. نتطور ولكننا لا نتغيّر. إن التحوّل هو مسألة قرون وقرون. يجب أن يموت أناس، يجب أن يزول الجيل الانتقالي. الجيل صنع الجسر. والجسر وجب أن يخرّب. كان جيل سعيد جيل صانعي الجسور، جسور الإرادة القوية. بيد أن الجسور وجب أن تخرّب. لقد خرّبت. قال عليّ لسعيد: "ستبنون أخرى". ليس السّعيدين هم الذين سيبنون الجسور. اختفى السعيدون أو سيختفون مع الجسور الأخيرة. كان جيل سعيد حلما حارا في صحراء مثلجة. لقد مشى في الصحراء حاملا كيس قمح الشقاء. رفضوا له صباحات الربيع التي تجعل القمر حالما. رفضوا له أيام الخميس التي بلون الأحد. لم يعرف ورودا ماعدا أسنان الشوك. أبصر النور في الشمس الجحيمية ليوم 8 ماي 1945. هذا الجيل حزين كحارس ليلي.

ومع ذلك فإنه آخر جسر. كان هذا الجيل الانطباع الأخير لخرافة القرون. عُمّد في النحيب والدّم. ورغم هذا كان يعرف جيّدا أن الحلم كلمة سرّ صحيحة. يجب أن يموت أناس. يجب أن يزول جيل. هكذا يصبح الموت طريقة لقلب الصفحة، طريقة لكتابة انطباعك الأخير.

هكذا فكّر سعيد في الوقت الذي كانت فيه الشمس تشرق على البحر. يمكن أن نبصر في الأفق الجبهة الصغيرة الزرقاء للشواطئ الجزائرية. الريح باردة، لقد ابتدأ نقل الأثاث المعهود عند كل وصول. "جبل الأوراس" يتزيّن قبل أن يمثل أمام الجزائر.

ابتدأ كل شيء وانتهى كل شيء. بالنسبة لسعيد وبالنسبة للآخرين. بالنسبة للعسكريين الذين يوزّعون القهوة على بعضهم، بالنسبة للعمّال العرب الذين ينتظرون تفتيش الشرطة.

ابتدأ كل شيء وانتهى كل شيء.

لم يتأثر سعيد عندما رأى الشواطئ تقترب، كانت هناك الدّهشة التي تتملّكنا دائما أمام مسألة محلولة. الحماسة مسموحة للأطفال. إنها أحيانا فرحة الذين لم يعودوا صبيانا. الحيوية المفرطة والإيمان لا يتماشيان.

عندما نقلب الصفحة لا ننسى اللوسيات، الكرز والخريف، الجسور المنطلقة كتحد وبطاقة دعوى. لا ننسى المدرّس الذي قدم من بروطان والإعلان عن حقوق الإنسان. لا ننسى السلّم وإعادة السّلام. عندما نقلب الصفحة... لنا ذكريات كثيرة لامتلاك ذاكرة. مساحة المدرسة الحارة حيث ركض الأطفال، الشوارع العصبيّة الفاترة المليئة بالمحلات والبطّيخ. ثم ظل الأروقة في أسفل شهور جوان. الجسور اللطيفة المتأكدة التي تخرّ على جسر الرّمال. وادي الصومام، الوادي الأزرق ومكمن الصيادين حيث تعلّم سعيد السباحة. مصطفى المكنّى "طاطا" الذي علّم سعيد أوائل

دروس الوطنية ومات مسلولا في مصحّ قرب تولوز. القرى القبائلية المنتصبة كالأسنام. وفي شارع العرب، في قسنطينة كما في تلمسان، الكلمات التي تعاد أثناء شرب القهوة. الجرائد المقشرة مثل لؤلؤية أو مثل خرشف. في الجزائر نعرف جيّدا كيف نقرأ ما بين السطور. لوسيا القادمة في صباحات نوّار البرتقال. سيدي علي بوناب(23)، محاجر قالمة(24)، وكل المفارقات، وكل القناعات.

●●●

الصفحة المطلسمة حيث تكتب الشمس بالذهب وبالدم...

كقليل من الشّعر الأبيض فوق جبهة حازمة...

تخرّب الجسر.

دّخان.

ارتدّت كآبة السهل في البعاد، انتهى العرق والمبادئ إلى أغنيات.

من الآن فصاعدا لن تمر مواكب الموت من هذا الطريق.

●●●

بكى العسكري الصغير، تألم، كان يتألم كثيرا، العسكري الصغير.

أخ لوسيا.

بكى كمن ينزف، سال دمه كثيرا. رصاصة، أمر لا يصدّق.

ربّع الجسر يديه على قدره اللامجدي. سيعرف التاريخ لماذا لم يعد جسرا. لقد سقط هو الآخر في ميدان الشرف.

●●●

لم يكن بوزيد يحب الشر. جسر أخيه هو الذي خرّب، أتى على تخريبه. جسر أخيه، أخيه...

●●●

جثة صغيرة حارة وحزينة. أخ لوسيا، جان فرانسوا.

أحد المستدعين للجندية. أحد المستدعين الذين وجب استعادتهم إلى الله، وإلى البشر.

●●●

يستلزم أيادي كثيرة، قوة كبيرة لقلب صفحة، لبناء جسر أو لتخريبه. الصفحة مثقلة بهذه القلوب التي تؤلّف أغنيات. والصفحة تسقط عندما نريد أن نقلبها. الصفحة، هذه الصفحة، مثل جرف ثلجي، مثل انفجار غازي في وسط الأقدار...

مثل باب ممزّق.

●●●

جثة صغيرة حارة وحزينة. جان فرانسوا. المستدعون إلى الجندية يذهبون إلى الله. وإلى البشر.

●●●

تطرح المشاكل كالحجارة.

نظر سعيد تجاه السماء، وجد هناك ناسا لم يكونوا ملائكة.

لم يكن بوزيد يحب الخراب. رجع إلى الجبل. ولم تعد للجسر ذراع.

●●●

تشبثت بقايا الأغاني بأنقاض الجسر. تمزّق فستان التويد الكبير حزنا. توفيّ الجسر كما توفيت لوسيا. تعددت الأسباب والمنطق واحد. ستنمو الفواكه من جديد، ستغني الورود من جديد، ولكن حبّات اليوسفي لن تكون لها نفس الخدود الوردية لحب يكلّمك ويعرف كيف يغنّي.

في محطة القلق الصغيرة لن يمر القطار سوى مرة واحدة خلال الحيوات قاطبة...

نظر بوزيد تجاه السماء، ولكن الآلهة كانوا في الأرض.

●●●

لم يعد سعيد ينظر تجاه النجوم. كان ينظر تجاه ذاكرته، ومنذ الأمد كانت الجسور تخرّب. ولكن بالنظر إلى مذكّراته اخذ القياس الدقيق للحلول.

الحقيقة ليست سعيدة. ومن عشر مرات تكون السعادة تسع مرّات ملجأ للحمقى.

●●●

مع ذلك فالاحتقار باق، الاعتقاد والحبّ. سعيد يعرف أنه ابتدأ. ابتدأ شبّابات الرعاة، ابتدأ الأغاني التي وجب إعادة التفكير فيها واسترجاعها.

رفضنا على الدوام طلب الخرافات الخاطئة.

نتقابل، نتساءل لماذا يجب أن نشرح كثيرا لنُفهم قليلا.

وحالما نأخذ على عاتقنا مجازفة قول الحقيقة يمكن أن ننتهي خارجين عن القانون. ولكن سعيد يخطئ من حيث أن النجوم لا تغمض عيونها عندما تبقى في السماء.

●●●

عرف سعيد عن طريق الصحف بأن جسره خرّب. أية فكرة هاته التي تجعلك تبحث في ركن الوفيات عن الإعلان عن موتك...

زليخة تلعب على السطح. السماء لها عيون هادئة لضمير مرتاح. القط يتأمل حلما مجهضا وهو ذاهب تجاه المطبخ الذي يطلّ باب نافذته على الحديقة. اللقالق الأولى تنساب على المدينة. غريب، اللقالق لا تعشش أبدا على سطوح الأحياء الأوروبية. أيها اللقلق، أيكون النهار جميلا غدا ؟ إذا رفرف اللقلق جناحيه فان غدا سيكون جميلا. رفرفي، رفرفي أجنحتك أيتها اللقالق !

الدّالية التي شذّبنا تبكي وهي تلوّي أيديها.

مرتفقا على درابزين السطح، راح سعيد ينظر إلى ابنة أخيه وهي تلعب مع نملة وتدندن. مناجاة رائقة، أسرار ملقاة إلى الأقطار الأربعة للنفس، لازمة مضيئة في أسنان صغيرة. السلام.

واللقالق تنساب في السماء. والطفل يلعب على السطح، والقط يتأمل هامته. أصبح النهار ورديا. أنسجة ذهبية تتناثر ممزّقة الأفق. هناك، باتجاه قمة شطّابة، مكث بعض الوردي معلّقا.

يمكن سماع حفيف الغابة النازلة بجديلتها الكسلى إلى وادي الرّمال. لا يجب، لا يجب تعكير اللحظة بكلمات ترنّ. لندع الطفلة تغني واللقالق تنساب، لندع القطّ يحلم، إنّها عشية منبسطة بآلة القيتار. ومثلما هو الأمر على الشاطئ، نتصوّر المدّ، نحس بالمساء القادم. ستشرع دوريّات الليل في طوافها. ستنبت النجوم. سينزل سلام الله على غضب البشر. إنه دور النجوم. نعرف في الجبل الإشارات التي تنادي بعضها فتجيب الآمال حذرة. نعرف الطريق النّدي والدّرب المنفردة.. في الممر الضيق

الذي يفصل بيت سعيد عن الدّار المجاورة ثمة كانون يلتهب وقد أقلقه التيار الهوائي الذي جعل شجرة التين الصغيرة ترقص. الشرارات الحمراء تندفع مثل صراخ طيور الدّوري المضايقة. إنها عشية منبسطة بآلة القيتار. ليس لنا أن نقول شيئا على الإطلاق...

التحقت زليخة بالمطبخ وقد بردت قليلا. تبعها لقط.

– سعيد، ألم تبرد ؟ سألت مليكة.

صوت حزين جدّا، طيّب، فاتر الهمّة.

بيد أن سعيد موجود هناك حيث تؤلف الأغاني، حيث تؤلف فصول الربيع. حيث اللقالق تنسحب في سماء مطمئنة، حيث الزليخات يلعبن مع النمل في أحد أماسي شهر أفريل.

قالت مليكة من جديد:

سعيد، ألم تبرد ؟

لقد كان سعيد بعيدا. كان هناك في بلاد الحساب الختامي...

●●●

ماذا كان يجب عليّ أن أفعل حتى أكون جديرا بالإنسان ؟ وماذا كان عليّ أن أقدّم حتى يكون لي حق المطالبة، انحصرت في موافقة. رأيت ذاك اللقلق ينسحب. رأيت ذاك الطفل يلعب. ولكنني لم أحصل على تلك الغبطة الحارة الجميلة مثل خبز خارج من الفرن. لم أشعر بنسيم البحر يُغرق حمّاي في تفاؤله الخالد. لم اقتسم المغامرة الرائعة. لست في توافق مع الإنسان. أخجل من العيش بعمل العمالقة. لست سوى شاهد على موضوعية حائرة في طلاء شيطاني.لا أفعل شيئا. لا أساهم. إني لا أشارك في الأمر. هل أبقى غير مشارك دائما ؟ آه ! هذه الأبيات

الملعونة:

"إذا صنت الإيمان لن أتحمّس

أن تفهم وتلاحظ، معناه انك لا تحب.

معرفة الكيمياء تتلف لي القبس.

لن أمشي إذا كنت خطاي لا أحسب..."

لو كنت أحسب خطاي...

مع أني من الفرح واللحم والأمل. سعيد. اتركه **الانطباع الأخير**. الجسور ستبنيها ويعبرها الآخرون. نعاود باستمرار أغنية الجار:

تعامل كالناس. هل تدري، لا شيء يجعلك تحس بالإهانة إذا تعاملت كالناس. لا أحد يستطيع أن يفعل أكثر. إن أصالة اليوم تتمثل في الغناء الجوقي ليتّضح النّغم.

سعيد، اترك انطباعك الأخير. دع زليخة تغني والنملة تجري. دع اللقالق تنساب في السماء المستعادة. دع القطّ الماكر في كمائن الهوام. الجسر الذي ترغب فيه لن تكون له ضفاف أبدا.

يا صديقي، الوقت هو الذي يستخدم كمعبر، المستقبل يخطو باتجاه نهايات الحاضر. ليس لك شيء من هذا اليوم الذي صنعت. لقد أعطت الشمس النهار للصبح ليهبه لنا. بلا مقابل. لا شيء تمتلكه سوى ركام من سقط ذكريات قلب ينبض.

●●●

- أجاب سعيد: لا، لم أبرد.

مذ وفاة عمّه الذي اغتيل في التاسع والعشرين مارس، بقيّ وجه مليكة في حداد. تجوّف وجهها الجميل الصغير وبدت عيناها

السوداوان تلمعان بقنوط من اجل تسخين وإضاءة سهل من الثلج المزروع بالكلاب النابحة.

هكذا تكون الحرب مرّت من كل جهة. الأكواخ، القرى، الجبال، النظرات، الجبل والسهل، لم تبق إلاّ دمية زليخة وذرارة نملة ولقلق وقط لم يُنتبه إليهم.

– في أيّ شيء تفكرين ؟ سألها سعيد.

هذا الرّجل الصموت لا يستطيع احتمال صمت الآخرين.

– في لا شيء، ليكن في علمك آني لا أفكر كثيرا. لي أفكار كثيرة...

لا أستطيع ان أفسّر لك، يبدو أنني لم اعد احب الحياة. لم أعد أفهم شيئا، كأن الله نسيّنا...

قالت ذلك بكلمات صغيرة تجعلنا نشعر أنها متعثرة.

هل نسيّ الله البشر ؟ هل نسيّ البشر الله ؟ كيف سنهتدي ؟

قالت مليكة بعد صمت طويل: تعرف يا سعيد، تعرف أني أحبك مثلما كنت صغيرة جدا.

افسحوا الطريق للشمس ! افسحوا المجال للسيّدات المحترمات ذوات العشرين سنة، للمليكات الحزينات العاتيّات، للجزائر الواهبة عيونها.

–... مذ كنت صغيرة جدّا، نعم أعادت برصانة، مذ كنت صغيرة جدا.

اختارت زليخة هذه اللحظة لتقول:

– أين أبي ؟

كانت هذه المرة الأولى التي سألت فيها عن أخبار أبيها.

●●●

في المساء نفسه، وبعد لحظات قليلة من الإعلان عن حظر التجول، سمعت عائلة بلحاسن اصطداما صاعدا من الحديقة. ثقيلا وشبيها بصوت سقطة. مرت أزلية صامتة، اتجه سعيد صوب باب النافذة.

– انتظر. أمر الأب، لا تفتح.

كانت زليخة تنام قريبا من المطبخة، في سلّة من شجر السوحر، استُعملت هذه السلة مهدا لجيلين من عائلة بلحاسن. كنا ما نزال نوقد النّار رغم تقدّم الفصل. وكانت أم سعيد شاحبة جدا وقد انسحب الدم من شفتيها، وبسرعة راح صرير صعب التمييز يقرض لصق النافذة صمت العائلة المتوتر القلق.

قال الأب: لعلّ القط أراد الدخول فسقط من العريش.

لا. قال سعيد، القط هنا. إنه ينام في السلّة عند قدمي الصغيرة. تضاعف الصرير، بقوة هذه المرة.

بدا تنفس زليخة مثل أرغن جحيمي لمصهر حديد عملاق. مازال الصرير لصق النافذة. في بادئ الأمر فتح سعيد الباب الزجاجي الذي أنّ، الأمر الذي أيقظ الصغيرة.

– من ؟

لم يجب أحد. في الشارع، راحت سيارة شرطة تزعج الأطر المطاطية للعجلات قبل أن تتوارى في أسفل الرّبض. آه ! ضربات المكابح هذه، وهذه الأطر المطاطية التي تشتكي...! البوم لا ينعب في الليل بمفرده.

فتح سعيد.

إنه بوزيد. أكيد.

"... أنا اعترف بأن هذا النضال
شجاع، لأن الشجاعة لا تنقص في
هذه الأرض الجزائرية..."
(خطاب الجنرال دوغول.
الجزائر، في 4 جوان 1958)

لا يوجد متسع من الوقت للنظر...

لا يوجد متسع من الوقت للنظر إلى السماء. لا يوجد في الحرب أمر أغبى من هذا. ثمة حلزونات بيضاء كبيرة ملتصقة بالصخور التي نحتها الزمن في شكل مناظر جانبية ضخمة ومخيفة. لقد نبتت عشبة نديّة. نباتات الزعتر ترفع أعناق أوراقها النحيلة الشبيهة بالزغب المعقد لفراخ البط. باتجاه الشمال يمكن رؤية السلسلة الجبلية بحدودها الأساسية، يبرز المنظر الطبيعي كزخرف مسرح صمّم بأناقة، رُسم جيداً، بُنيَ جيّدا. إن الأفق نظافة خارقة. اللقالق تنساب كسلى ورخوة، متحررة ومترفة. لم يستطع سعيد الامتناع عن مساءلتها: "أيتها اللقالق، هل يكون النهار جميلا غدا ؟" يجب أن نثق كثيرا باللقالق. طائرة صغيرة تتنزّه على ارتفاع شاهق. طائرة مراقبة. إنها تبحث مثل كلب الأوكار. تلامس الغيوم البيضاء النادرة. تدور، تذهب، ترجع، تصعد، تنزل، تقوم بمهمة كلب الصيد وكلب الشرطي. خسارة. مع أن السماء كانت زرقاء بالمقدار الكافي، وكانت الغيوم بيضاء بما فيه الكفاية.

اللقالق تنساب مزدردة غير مبالية. إنها تبني أوكارها. الطائرة

تحارب. تحلّق الآن على ارتفاع أقل من مئتي متر. فكّر سعيد في محطة الإذاعة، المراقبة. إنه يبحث. الغارة الكبرى، جهاز الراديو يصرّ. لا شيء دائما. هناك في طرف الأفق، ناس آخرون يترقّبون. ينتظرون أن ينزع منهم صيدهم. فكّر سعيد في المراقب، المذياع، المنظار. يمكن سماع الصمت النازل من الجبال.

الطقس جميل.

النمل يجري وسط نباتات الزّعتر. طحلب صغير يحوط بالحلزون. في الشمال، في أقصى الشمال، في الجهة الأخرى من البحر، يفكّر سعيد في حلزونات أخر. مرّت سنة. أشياء كثيرة تجول بخاطرنا لما تنساب اللقالق، لماّ تتجوّل طائرة صغيرة بحثا عن طريدة...

تسلّقت نملة رشّاش سعيد. عن أي شيء تبحثين أيتها النملة الصغيرة؟ لا وجود للقمح هنا. لا شيء ينبت على رشّاش. وصلت الدويبة إلى حافة الأستون وانحنت لرؤية الثقب، الثقب الأسود. تردّدت. ذهبت. كانت محقّة لمّا ذهبت. غريب، نملة على رشاش. ليس هذا مقامها.

أعطى بوزيد تعليماته. نظر إليه سعيد. إنه هادئ، هادئ تماما، لم يتغيّر البتة، بلى، طبعا، شعيرات بيضاء كثيرة على الصدغين. "في أي شيء يفكر بوزيد يا ترى ؟" تساءل سعيد.

صورة زليخة أنذاك. سعادة صغيرة طولها خمسة وسبعون سنتيمترا. لا. ليس الآن. إنها تنمو كالشجر، السعادات الصغيرة. إذن، السطح والبلاط الفاتح، الأم ذات الوجه المستسلم. حبات اليوسفي، القط، شجرة التين...

لكن بوزيد لا يفكر. أعطى تعليماته، وهو الآن ينتظر. هذا الرّجل منحوت في الصمت. إنه هادئ كصخرة. المرافقون الآخرون

هادئون هم أيضا. هادئون كالصخر. إنهم يترقبون

في أسفل الطريق تسمع الدبابات تتحدث خبط عشواء. تطلق النار بلا تبصّر، بلا قناعة. لم تشاهد الطائرة أيّ شيء بعد، لم تعثر على الطريدة بعد. على المنظار أن يبحث. على جهاز الراديو أن يعيل صبره. توارت أكمة في الجهة اليمنى. نثرت القنيفة كل شيء في الفضاء. لحسن الحظ لم يكن هناك أحد.

نترقّب. الطائرة تحلق على ارتفاع اكثر انخفاضا.

خلف صخور أخرى، هناك رجال آخرون يترقّبون. يحدث أن يكون سعيد ما اسمه جاك او لوسيان ينظر في اللحظة ذاتها إلى نبتة الزعتر، إلى حلزون، إلى نملة.

نترقب، الطائرة تحلق على ارتفاع اكثر انخفاضا.

الصخور تتنقّل. تعليمات بوزيد شكلية: "لا نطلق النار إلا عندما يعلن ذلك، لا نلقي القنابل إلا عندما نشارف الموت". الطائرة تحلّق على ارتفاع أكثر انخفاضا. المنظار يبحث، جهاز الراديو لم يطلق صيحة الهجوم.

توقفت الدّبابات عن إطلاق النار. إذن، لقد اقترب الذين هم في الجهة المقابلة. لقد تقدّموا.

لا يوجد متسع من الوقت للنظر إلى السماء. لا يوجد في الحرب أمر أغبى من هذا.

يبدو بوزيد تمثالا.

عاد بيت الربض العتيق. الباب الحديدي الذي يصرّ. شجرة التين ذات الآذان الفيلية. الثلج، الضيف الميمون عندما يصبح العريش المضاء ليلا مثل كندا خارجة من الخرافة، بوزيد وثانويته، ملسم ابن باديس الذي لا ندري من أين أتى به أحد

المساءات. ملسم جميل بأصابع الشيخ الماهرة تحت معطف رشيق وبعيد. البيت المليء بالحياة، قاطع التيار الرصاصي الذي ينفجر دوما في العدّاد القديم. الدّيك الذي يصيح كل ليلة. الأناشيد التي نحفظها في الكشافة الإسلامية الجزائرية والتي تقول بأن الجبل ينادي.

الطائرة تحلّق على ارتفاع أكثر انخفاضا.

مليكة "أحبك مذ كنت صغيرة جدا". مليكة المشعّة أو الحزينة، مليكة التي لم تكن تتكلم كثيرا، التي تحرّك قهوة سعيد.

ستنتهي الحرب. سيجد النمل ونبات الزعتر مكانهم في جدول توقيت الإنسان. سيتكلم البارود من أجل عيد الأضحى. سيحمل الأطفال البيض الملطخ بالألوان في شوارع قسنطينة وفي الشوارع الأخرى. في المخابر ستبقى الأفران مشتعلة إلى ساعة متأخرة من الليل. ستصبح مليكة جميلة، إلهي. كم ستصبح جميلة.

اللحظات المتحمّسة للسلام حوالي البيت الهادئ، لا تتأخروا.

الطائرات تحلق على ارتفاع اكثر انخفاضا.

بوزيد مسمّر في مكانه دائما. هادئ، هادئ. يجب الانتظار، الانتظار قدر الإمكان. يجب ربح الوقت، يجب ربح الحياة. الليل، الليل، صديق الناس الذين ليست لهم طائرات، ليست لهم دبّابات.

ولكن طائرة المراقبة الصغيرة عيل صبرها هناك في الأعلى. إنها تدور، تدور، تغضب. رائحة صيحة الهجوم، إنه وقت التنافس على المراكز. خلف صخور أخرى رجال آخرون يتقدمون، يقتربون.

أيتها الصخور. كوني صديقة الذين ليست لهم طائرات ودبّابات، أيها الليل ! لا تتأخر. هذه الكلمات لا هيئة لها، هذه

الكلمات الصغيرة. هذه الجملة لا هيئة لها. هذه الجملة الصغيرة: إنها مسألة حياة أو موت.

حياة أو موت...

خلف صخور أخرى، رجال آخرون يقتربون، يتقدّمون. سعيد لا يملك ساعة، لم يعد يملك ساعة. قد تكون الرابعة أو الخامسة مساء.

في موضع آخر قد تكون الساعة الرابعة أو الخامسة مساء أيضا. إنها اللحظة السوداويه الفتّانة في مدينة أو في قرية الموضع الآخر. جيزال جميلة في فستانها، أوه ! كم هي جميلة. جيزال أو ماجدولين. الملهى الصغير بجانب سيفر-بابيلون به رائحة زكية لقهوة زكية. الميترو ينسحب، كأنه لعبة أطفال، في إحدى القرى هناك بقّال يحدّث زبونا لا يدري بالضبط ماذا يشتري. جدول فاتر ينساب تحت الجسر. أحد السواح يلتقط صورًا. أرسل بطاقة بريدية، كتب "قبلات طيبة"، سيغتبط الجميع. جيزال أو ميليزا أو ماجدولين تشرب عصير فواكه. هناك في الصفحة الأخيرة للجريدة قائمة قاعات السينما وبرامجها. هناك معلّم يكتب في قسمه على سبّورة سوداء. تلاميذ ينتظرون بفارغ صبر ساعة الخروج. في الحديقة الجميلة لمدينة أفينيون، قرب قصر الرّهبان، طفل صغير يركض في الممرات خلف دولابه. ماعدا إذا لم يكن ذلك في كوبنهاج. في محطة ما، سيّد ينتظر القطار حاملا حقيبته. لقد اشترى مجلات وسجائر. إنه مسرور. خلت الشوارع في لندن: الخامسة تماما[25]. جيزال أو ميليزا أو مجدولين تنتظر قرب تمثال. أحد الالبنيين يبتسم لمجلداته. في إحدى قاعات سينما الحي اللطيف، الفارغة تقريبا، عشاق يتعانقون.

في اللحظة التي كانت فيها جيزال أو ميليزا أو ماجدوليين تنتظر قلقة أمام التمثال، كان أحد المحكوم عليهم بالإعدام ينتظر في خليته بقسنطينة. في اللحظة التي اشترى فيها المسافر

مجلات وسجائر كان قبرصي يختبئ في أحد شوارع نيكوسيا، مطاردا، مرتعدا، مصمّما. في اللحظة التي كان فيها المدرس يكتب على السبورة السوداء كانت هناك عجوز تبكي في ماليزيا. في اللحظة التي كان فيها ذاك الطفل يجري خلف دولابه في ممرات حديقة أفينيون الجميلة، أو في كوبنهاج، كان بربريّون صغار ينظرون إلى كوخ أبيهم وهو يحترق. في اللحظة التي كان فيها العشاق يتعانقون في قاعة السينما اللطيفة للحي: ألقت الريح الموسمية مطرها للغارة الثانية في جهة ما من جهات ديان بيان فو حيث سكتت المدافع وسكت الناس. في اللحظة التي كانت فيها مارغاريت تتناول شايها طرد تلميذ أسود من المدرسة من قبل تلميذ أبيض.

يمكن أن تكون الساعة الرابعة أو الخامسة مساء في أية جهة أو على سطح الأرض.

الطائرة تحلق على ارتفاع اكثر انخفاضا. لقد أحست. اشتمت. رأت. تكلم جهاز الراديو.

بوزيد أعطى الأمر...

لا مجال للنظر إلى الزعتر الآن، النمل أو الحلزونات. يجب ربح الوقت، يجب بلوغ الليل. الرّماية دقيقة. الرجال الآخرون يتراجعون قليلا. بوزيد هادئ دائما. يحارب كمن يلاحظ، كمن يدرس. الرجال يكزون على أسنانهم. الغيوم كثيرة. ازرورق النهار. ولكن الليل لا يريد إرخاء سدوله. الستار لا يريد أن ينزل. العرض في بدايته.

ولكنّ جهاز الراديو حدّث أولئك الناس الذين لهم دّبابات وطائرات. جهاز الرّاديو أنذر أجهزة الرّاديو الأخرى. الطائرة الصغيرة المراقبة، كلب الصيد، كلب الشرطة لم يعد وحيدا. أطلقت صيحة الهجوم ! إنه السباق على المراكز! الطائرات المطاردة تقنبل الصخور وتبتعد. لا تريد الإلحاح. أهاليهم قريبون جدا والالتباس ممكن.

لم يأت الليل بعد، لا يوجد اي لقلق، لا توجد أية نملة، لا يوجد زعتر.

سقط رجل قرب سعيد. الآن، لا وقت للاهتمام بالموتى. كان ليّنا، رشيد، ليّنا جدا. التحق بالجبل من البداية، لمن الدور ؟ لم يعد سعيد يعرف نفسه. كانت فوهة الرشّاش لاهبة. عيناه لا تتحركان. لمن الدور ؟

بوزيد يعطي أوامره. يجب اقتصاد الذخيرة. يجب ربح الوقت. يجب بلوغ الليل. لو أن الليل رغب في ذلك ! ربح الوقت. تحرّك مصادف وضع سعيد قرب أخيه. الرجلان ينظران إلى بعضهما ولا يتكلّمان. ليس لهما متسع من الوقت للكلام. لم يعودا أخوين. إنهما رجلان، جنديّان، جزائريّان يقتصدان الذخيرة وينتظران الليل.

– انبطح ! صرخ بوزيد.

حان الوقت. القذيفة لا تمزح. سقط إبراهيم بدوره. رابح بدوره، ممرّض ما يزال طفلا. صحيح، يمكن أن نكون رجلا في أية سن.

عادت الطائرات.

يجب بلوغ المغارة. مهما كان الأمر. إنها مسألة حياة أو موت. نأخذ الجرحى والموتى، نتنفس لحظة.

ولكن الطائرة، الطائرة الصغيرة، المراقبة، كلب الصيد، كلب الشرطة، ولكن الطائرة رأت، رأت كل شيء. وأبلغ جهازها أجهزة الرّاديو الأخرى. لقد دخلت المدفعية الثقيلة في الرقص.

يجب مغادرة الكهف. مهما كان الأمر. إنها مسألة حياة أو موت. ثانية واحدة، مجرد ثانية واحدة كافية لأن تصبح بطلا. قبل قليل، قبل لحظة لم أكن سوى إنسان، إنسان بسيط، مثلكم ومثلي.

ماذا ستقول مليكة لو رأتني ؟ وأمي التي تعرف أني لا أحبّ الصّخب ؟

سكتت المدافع، أتظن أن سعيد فكّر في مليكة وفي أمّه ؟ هل التزمت بهدنة الحب؟ ...

"أحبك مذ كنت صغيرة جدا" قالتها بكلمات نشعر أنها متلعثمة. مذ كنت صغيرة جدا... ستعود الأغاني بعد الحرب. سيكون الطقس جميلا بعد الحرب. اللحظات الانفعالية للسلام

حوالي البيت الهادئ. سيكون الطقس جميلا. أقول لكم. اللقالق أكّدت هذا، إنها لا تخطئ أبدا.

ماذا يحدث في الجهة المقابلة؟ صمت مطبق. جاء المساء، بيد أن الليل تأخر في الطريق. ما زال النهار مضيئا كثيرا. لا مجال للانقضاض. بوزيد يسبر الأفق بمنظاره. عجيب! كم هو كبير. لم يره سعيد في هذه الصورة إطلاقا. كان يرتدي فوق قميصه الرياضي وشاحا ملفوفا حول عنقه، سعيد يعرفه جيدا. وشاح: اللحظات الحماسية للسلام حوالي البيت الهادئ. كانت الأم هي التي سردته. عقدة خيط في موضعها وأخرى معكوسة. دقات الفياقة الأبديّة على خزانة المطبخ. عقدة خيط في موضعها وأخرى معكوسة. عاد الأب من المدينة مساء. صرّ الباب الحديدي. وزّع على الأطفال قرون الحمص والكرميلة. ما حديجة كانت تنسحب كلما رأت السيد بلحاسن. حياء امرأة عربية. أي جديد في المدينة؟ عقدة خيط في موضعها وأخرى معكوسة.

عندما كان سعيد يزحف أقترب من أخيه أكثر فأكثر.

– قوّم ياقة قميصك، وشاحك باد للعيان.

قوّم بوزيد ياقة قميصه. كان هناك صمت يحيط بالجبل. بالصخور وبالرجال، مثل وشاح.

في الخلف. باتجاه القمة، فوق المغارة، ابتدأ التقهقر. نقل الموتى والجرحى. ما عدا جمال. لم يدعهم ينقلونه. عينان ملائكيّتان، خدّان متورّدان لطفلة صغيرة. كان يحضّر شهادة ليسانس في التاريخ بمدينة باريس، جمال مستقيم دائما. أستاذ صغير لأوبيريت تصيب رؤوس المدرسيّين بدوار. ابتسامة فتّانة. ابتسامة مهدّئة. عندما يتكلم، تتردّد شفتاه الممتلئتان قليلا. اللّحيمتان. المرسومتان بدقّة. كان هذا الرجل يخاف أن يخطئ إذا ما تكلم. سعداء أولئك الذين لا يتردّدون. الذين يقولون دفعة واحدة ما يعتقدونه صوابا. ما يزال جمال يعبق برائحة الحي

اللاتيني. يمكن أن نتصوره بسهولة يشرب قهوة بالحليب وهو يقرأ جريدة. مع أنه كان مرتاحا هنا أيضا، بين هؤلاء الرجال وهاته الصخور. أحسن من صعود شارع ميديسي. أستاذ صغير لأوبيريت تصيب رؤوس المدرسيّات بدوار. في أحد الأيام قرر الدخول. قال لأصدقائه وداعا. ترك شارع ميديسي. القهوة بالحليب والسوربون. لا يمكن أن ندرس التاريخ ونعيشه في الوقت نفسه.

قام بالتسجيلات في الأدغال. لقد ذهب رفقة دروسه. ملاحظاته، عينيه الزرقاوين، خدّيه المتوردين. هكذا. مثل رجل عظيم.

مثل رجل حقيقي.

مثل إنسان.

هذا الصمت يزعج بوزيد. منظاره يفحص الأرض، يفحص السماء. يجب خرق الصمت. يجب أن نعرف، أن نتنبأ، أن نفهم. هذا الصمت غير طبيعي. ماذا ينتظر الموت ليفتتح الحفل؟

●●●

الموت ينتظر أن يتأكد من نفسه ليفتتح الحفل. إنه يعتني بالإخراج. لقد اختار الأوركسترا.

موسيقيوّ السماء يمطرون كملائكة سود. القبعات الزرق!

– بوزيد يشكك.

– المروحّيات.

الحرب في جوهرها هي صراع من أجل الحياة. لا نقتل. نحب أن نحيا. نحب إنقاذ جلدنا. المفارقات وحدها لها الحق في الموت. بوزيد ومرافقوه يحاربون. بوزيد ومرافقوه يحاربون مثل الرّجال. الأسود تحارب مثل الرجال. صراخ، هدير، متر وراءه متر. صخرة وراءها صخرة. الملائكة السود تمطر في كل

الجهات. جهاز كلب الصيد. كلب الشرطي أخبر أجهزة الراديو الأخرى. متر يعقبه متر. صخرة تعقبها صخرة. الملائكة السود تمطر في كل الجهات. لم يعد الأمر متعلقا بالزعتر، بالحلزونات، بالنمل الصغير. سعيد متواجد قرب أخيه دائما. بوزيد هادئ. منحوت في الهدوء. هادئ مثل صخرة.

آه! موهبة، من الحجر. يجب التعبير عن هؤلاء الرجال! يجب التعبير عن هؤلاء الرجال الذين ليست لهم دبّابات وليست لهم طائرات. يستلزم لأيديهم الأيادي الندية للورد. يستلزم لعيونهم نظرات طفل. لأجلك يا حرية: لأجلك. لا تنسى.

غدا سيجهّز الطابع تصميمه. بين بطارية من نوع ووندير وآخر الإشاعات يمكن قراءة: "قضّي على عصابة كبيرة من المتمرّدين في النمامشة. الأسلحة الآلية، الـ "خمسة وسبعون" بدون تراجع. ثم مدفعية بمئة وعشرين طلقة. والقبعّات الزرق يعلنون الغارة. القتال بالرشاش، بالقنبلة، وصل إلى المجابهة الجسمية بالسلاح الأبيض.بين بطارية من نوع ووندير وآخر صورة لبريجيت باردو. ثم نقرأ مسلسلها، نهتم بالكلمات المتقاطعة، نبتسم للأشرطة المصورة...

العرق يتصبب على جبهة بوزيد. حُلّ وشاحه. عقدة خيط في موضعها. عقدة خيط معكوسة. الموت في راحته. الرصاصات ترشّ الصخور. كأنها حجارة في الماء. عقدة خيط في موضعها. عقدة خيط معكوسة.

سمع سعيد:

– يا ما تدفعنا إلى فعله الشريرة!

– عمّن تتحدث؟ سأل بوزيد.

– عن الحرية...

طار الباقي مع الرصاصات. يا ما تدفعنا إلى فعله...

مات جمال، الأستاذ الصغير، بعينيه الزرقاوين وخديّه المتوردين كخدّي فتاة. الأستاذ الصغير لمادة التاريخ. انتهت الأوبيريت. انتهت القهوة بالحليب، انتهى شارع ميديسي. لا شيء. قليل من الدم السائل من الشفتين . شفتان تترددان باستمرار قبل الحديث. يا ما تدفعنا إلى فعله. عقدة خيط في موضعها، عقدة معكوسة. الرجال يصرخون. الليل قرر المجيء، دون أن يتسرع، الفاسق.

يجب رمي القنابل اليدوية في اللحظات الأخيرة فقط. أعطى بوزيد الأمر. مهلة. نغتنم الفرصة للابتعاد. ذهبت الطائرات والمروحيّات.

يا ما تدفعنا إلى فعله، الشريرة! نظر بوزيد إلى أخيه وابتسم.

إحدى هذه الابتسامات التي تريد أن تقول: إنّي هنا، فقط، ببساطة: إنّي هنا.

عقدة خيط في موضعها. عقدة خيط معكوسة.

نسمع الرجال. نسمع الدبّابات. عادت الطّائرات. القمة ليست بعيدة. الخلاص ليس بعيدا. ولكن الهندسة تندثر عندما يأخذ الحساب الكلمة.

●●●

فكر سعيد في دروس الحساب في المدرسة الابتدائية. الطرح. علامة ناقص. ضع سطرا. ضع علامة يساوي. درس في الحساب، في ما مضى، في المدرسة الابتدائية، على كراس المسودة، على لوحته.

اليوم هاهي هنا العملية، إنها هنا عملية الطرح، إنها هنا بلحمها وعظمها. ناقص رابح، ناقص رشيد، ناقص إبراهيم، ناقص جمال...

ناقص الجزائري النكرة

●●●

إنها هنا، العملية. إنها هنا عملية الطرح. إنها هنا. بلحمها وعظمها.

سيأتي الليل. إنه يقترب. الستار ينزل ببطء. ولكن. بعد قليل. أثناء الاستراحة، لن يجيء الممثلون لتحية الجمهور.

الستار ينزل ببطء. الصخور باردة كالحلم الذي نوشك على بلوغه ويختفي. القواعد تنتظر الأبطال. ذهب النمل. الحلزونات بقيَت في بيتها. لم نعد نبصر الزعتر.

الجسور قطعت. الستار ينزل ببطء. الانطباع الأخير ينتشر في القلوب. السماء خرساء.

مع ذلك هناك لقلق واحد يؤكد:

– غدا سيكون الطقس جميلا.

– يجب أن نثق باللقالق.

علامة ناقص. ضع سطرا. ضع علامة يساوي. اليوم، هاهي هنا العملية. إنها هنا عملية الطرح. إنها هنا. بلحمها وعظمها. ناقص إبراهيم. ناقص رابح، ناقص محمد، ناقص العيد، ناقص رشيد، ناقص جمال...

ناقص الجزائري النَّكرة.

●●●

ناقص سعيد.

●●●

أزال بوزيد الوشاح الذي كان على عنقه، غطى بوزيد وجه أخيه. عقدة خيط في موضعها، عقدة خيط معكوسة...

النهاية.

هوامش

(1) الجزء العشرون من الفرنك، ويقصد الروايات التي تشترى بمبلغ زهيد

(2) حساء بروفانس المكون من الخضر.

(3) - (4) الكلمتان جاءتا بالعربية.

(5) تستعمل صفة خنزة، بتسكين النون، للدلالة على المرأة القذرة، وهي عربية الاصل، من خنز الشيء، أي فسد -المترجم-

(6) كانون. موقد جمر صغير من الطين-المترجم-

(7) Kepi، قبعة عسكرية يرتديها الجنود الفرنسيون، -المترجم-

(8) كتابات يمكن قراءتها على جدران المدن الجزائرية قبل 1954 . (تحيا الجزائر حرة)

(9) إحدى القصص المشهورة للكاتب الفرنسي ألفونس دودي المضمّنة في كتابه lettres de mon moulin المترجم.

(10) استعملنا لفظة ملسم كمقابل لكلمة Portrait، ومن الواضح أن الكلمة الفرنسية مركبة من porter -Traits، لذلك ارتأينا نحت ملسم من: حمل + سمة. -المترجم.-

(11) استعمل الكاتب لفظة " KEMIA " وهي مأخوذة من الدارجة الجزائرية، وعادة ما تتداول في الخمارات، ويقصد بها المأكولات الخفيفة التي ترفق بالشرب: الحمص، الفول، الفستق ... إلخ، والكلمة ذات أصل عربي " كمّية" غير أنها تنطق في العامية بتسكين الميم -المترجم-

(12) وردت الكلمة باللغة العربية.

(13) موريس أوتريو، رسام فرنسي (1833-1955) له أسلوب مزيج من الصفاء الشكلي والافراط في الدقة اللونية، وقد إنفجرت قريحته الإبداعية في فترة 1908-1914، وقد بقي هذا الفنان مجهول الأب. -المترجم-

(14) بول فرلين، شاعر فرنسي (1844-1896) له نزعة إنطباعية موسيقية ويعد من أكبر الشعراء الرمزيين. عاش سكّيرا، متشردا وبوهيْميا. -المترجم-

(15) -مشرف الدين سعدي، شاعر فارسي (1184-1290؟) ترجمت دواوينة في الغرب وتعلق بها القراء والكتاب كثيرا، وقد اشتهر بديوان البستان.

(16) Auvergne: منقوع القرظ وهو شجر يكثر في البلاد العربية ويستخرج منه صمغ (المنهل) وأوفيرن هي مدينة فرنسية.(1) إستعمل الكاتب لفظة GUELTAS ، وهي عامية مستعملة في الواحات الصحراوية وتدل على البحيرات الصغيرة، وقد شرحها في الهامش.

(17) وردت الكلمة باللغة العربية.

(18) نسيج شفاف من الموصل يستعمل كضمادات، ويستعمل ما يشبهه في بعض البلاد العربية للف الرأس، وخاصة لدى البدو وسكان الصحاري -المترجم-

(19) استعمل الكاتب لفظة Gueltas وهي عامية ميتعملة في الواحات الصحراوية وتدل

على البحيرات الصغيرة، وقد شرحها في الهامش

(20) TIERS-ETAT ناس لا ينتمون إلى طبقة النبلاء في فرنسا القديمة -المترجم-

(21) FELLAGA ,FELLAGHA، كانت تطلق على المتمردين الجزائريين على الغزو الفرنسي، ويعتقد أن الكلمة بدأت تستعمل إبان الحرب العالمية الأولى.- المترجم-

(22) استعمل الكاتب لفظة MEKTOUB (مكتوب) وهي كلمة من ضمن الكلمات الكثيرة التي استعارتها الفرنسية من المجتمع الجزائري إبان الاحتلال -المترجم-

(23) قتل عده جزائريين في سيدي علي بونان تحت ولاية م.أ. نيجلان، في المرحلة الانتخابية.

(24) في ماي 1945 كانت هناك مدافن حقيقية

(25) كتبت هذه العبارة بالإنجليزية.

هل رأيت يا لوسيا، في بلدي سهول وسهول، سهول فسيحة كجملة بلا فاصلة، سهول من غير قرى. ثمة المسافة ذات الأبعاد الشاسعة التي لا يوقفها شيء. هذا المستطيل الكبير الموجود هناك بين لا متناهيين هو الجزائر. وهذا المستطيل الصغير النائم هنا. هذا الحجم الصغير من الحجر الأبيض هو اللانهاية أيضا. وتنامين يا لوسيا في سرير من التراب والحجارة أكبر من بلدي. هناك، هناك، يتحدث سعيد بعينيه ولوسيا تنام هنا. قرب هذا الأحد المرح، على هامش السماء الزرقاء، هنا قرب الحياة. هنا حيث يدافع الأنصار عن ألوانهم. كما يدافع هناك أنصار الشمس عن ألوان راية محسنة. وتنامين هنا، وحيدة وسط قبور وحيدة هي الأخرى. ولكن، بنومك الفاضل استرجعت أحلامي. وأحب أن أنتقم لك من هذه الرصاصة الطائشة التي جعلتني أفتقدك، وأحب أن أنتقم لك من هذه الحرب التي نهبت سلامي.

ردمك :9961-832-67-1